عَادات فرعونية

باقية في مصر إلى الآن

تأليف

محرم كمال

الكتاب: عَادات فرعونية باقية في مصر إلى الآن

الكاتب: محرم كمال

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

كمال، محرم

عَادات فرعونية باقية في مصر إلى الآن/ محرم كمال

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٠٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٩ – ٧٢ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٢٣٠ / ٢٠٢٠

عَادات فرعونية
باقية في مصر إلى الآن





مقدمة

يعتبر "أحمد كمال باشا" الأب الروحي للاثريين المصريين، فهو أول عالم مصريات مصري وله الفضل في تمصير علم الآثار، فقد كان هذا المجال مقتصرا على الأجاتب وعدد قليل من أبناء الطبقة الأرستقراطية المصرية، وكانوا يدورون في فلك الأجانب، وهو أول مصري عمل في مصلحة الآثار المصرية، وحاول كثيرا أن يكسر احتكار الأجانب شبه المطلق لهذا المجال، ومن محاولاته الناجحة سعيه لدى أحمد حشمت باشا ناظر المعارف وقتها، لإنشاء فرقة لدراسة علم الآثار المصرية بمدرسة المعلمين الخديوية، وقد استجاب الوزير له فأنشئت الفرقة، وكان من بين طلابها عدد ممن صاروا فيما بعد من كبار علماء التاريخ والآثار، ومنهم سليم حسن، وأحمد عبد الوهاب باشا، ومحمود حمزة.

وبعد تخرج الفرقة الأولى سنة ١٩١٢محاول أن يلحق بعض أعضائها بالمتحف المصري، ولكنه لم يوفق؛ بسبب العراقيل التي تعمد الأجانب أقامتها، فاشتغل خريجو هذه الفرقة بالتدريس، ثم نجحت مساعيه في تعيين ثلاثة منهم في المتحف المصري سنة ١٩٢٣م ولم تتوقف جهوده عند ذلك، فواصل مساعيه لدى نظارة المعارف من أجل إحياء دراسة الآثار في مدرسة المعلمين العليا، فأعادت الوزارة افتتاح فرقة دراسة الآثار واللغات القديمة بمدرسة المعلمين سنة ١٩٢٤م

وكانت آخر مساعيه إذ توفي قبل افتتاح الفرقة، أي بعد وفاته، لكن تلامذته واصلوا السير في طريقه واتبعوا نهجه، وواصلوا مساعيهم لتمصير علم الآثار ونتج عن ذلك بعد إنشاء الجامعة المصرية تأسيس قسم للآثار ضمن أقسام كلية الآداب، وهو الذي تحول فيما بعد إلى كلية الآثار.

وقد سار سليم حسن على درب أستاذه فعمل على إلحاق بعض خريجي فرقة دراسة الآثار واللغات القديمة بمدرسة المعلمين في مصلحة الآثار المصرية، وكان من بين تلامذته النابهين الأثري كمال محرم، الذي عمل مفتشا للآثار في أكثر من منطقة بمحافظات مصر قبل أن يصبح كبيراً لمفتشي مصلحة الآثار، بعدها انتقل للعمل بالمتحف المصري كمدير إداري ثم أمين مساعد حتى أصبح أمينا للمتحف المصري.

ولم تقتصر جهود محرم كمال على العمل الوظيفي وما ارتبط به من مشاركة في عمليات التنقيب عن الآثار، بل أسهم في زيادة الوعي الأثري لدى العوام بكتابة المقالات ونشرها في الدوريات المصرية الشهيرة وقتها كالرسالة والهلال، وأيضا تأليف الكتب الموجهة للقارىء العام ومن أشهر كتبه " تاريخ الفن المصري القديم"، و " آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية"، كما شارك في تأليف موسوعة " تاريخ الحضارة المصرية".

ومحاولة من (وكالة الصحافة العربية – ناشرون) لزيادة الوعي الأثري لدى غير المتخصصين، والتأكيد على عظمة الحضارة المصرية

القديمة، وأيضا الحفاظ على آثار ذلك الرعيل من الأثريين المصريين قمنا بجمع المقالات التي نشرها "محرم كمال" في الدوريات المختلفة ولم يضمها كتاب، وضممناها معا في كتابنا هذا.

تبويب الكتاب

المقالات الإثني عشرة التي يضمها الكتاب يجمع بينها– فضلا عن كونها جميعا لذات الكاتب– انشغالها بتاريخ وآثار مصر القديمة، حتى حينما كتب عن الانجليز تخير منهم الطائفة المهتمة باستكشاف الآثار المصرية، وقد اقتضي السياق الذي فرضته نوعية المقالات ترتيبا معينا لها، فبدأنا بمقالته عن المستكشفين الإنجليز للآثار المصرية، يبدأه بالتأكيد على أن مصر ظلت لفترة طويلة أرضا مباحة للباحثين عن الآثار، وكانت مصر مستباحة قبل انشاء مصلحة الآثار المصرية فيبحث في أرضها ويستخرج منها ما شاء، ويعود بما عثر عليه إلى بلاده فيتصرف فيه كيف شاء. هذه الفترة من تاريخ التنقيب عن الآثار يطلق عليها اسم الفترة الطليقة التي لم يكن فيها رابط لا من القانون ولا من نظام البلاد وقد تلت هذه الفترة فترة أخرى عمل فيها بعض المنقبين على أساس علمي، دون أن يكونوا مقيدين من قبل الدولة بقيود منظمة معينة، وهذه الفترة وما يليها هي التي يركز البحث فيها عن المكتشفين الانكليز، ومنهم "فلندرز بتري" استاذ علم الآثار المصرية بجامعة لندن، ويشير إلى أن معظم الأثريين الأنكليز الذين أشتغلوا في مصر قد تتلمذوا على فلندرز بتري واشتركوا معه في حفائره مما اكسبهم خبرة في حياتهم الأثرية.

تلاه " آثارُنا التي لم تكِشفْ بَعْد" فقد أسهم المستكشفون المشار إليهم في المقالة الأولى في اكتشاف بعض تلك الآثار التي لم تكن قد اكتشفت، ثم مقالته عن تمثال" أبو الهول ذلك اللغز الخالد"، ذلك عن الجانب المادي متمثلا في الآثار نفسها أما بقية المقالات فتعالج النواحي القيمية، أو ما كشفت عنه تلك الآثار، فتأتي مقالات الكاتب عن: "التبرج عند قدماء المصريين"، و "الحرب عند قدماء المصريين"، "المرأة في الفن المصري القديم"، و " المرأة والزواج عند قدماء المصريين"، ونظرا لأن الأدب المصري القديم يعتبر كاشفا عن الحياة الاجتماعية التي عاشها المصري القديم تماما مثل الآثار والمثبت عليها من نقوش تحكي حكايات التاريخ، فأثبتنا مقالتيه عن قصتين من قصص الأدب المصري القديم، أو من قصص البردي وهما "السحرة" و"الخائنة".

ونظرا لارتباط عظمة التاريخ المصري القديم والآثار الدالة عليه بالأساطير جاء مقال " أشباح الفراعنة" وهو يتلمس أشهر تلك الأساطير، ومن جوانب عظمة الحضارة المصرية القديمة أنها رغم اندثارها، واعتماد العلماء على الحجر لمعرفة المنقوش منها إلا أن جانب مهما منها لم يزل حيا، يتوارثه المصريون عبر الأجيال، لذلك اختتمنا الكتاب بمقالتي الكاتب عن " العادات المصرية القديمة الباقية في مصر إلى الآن" للتأكيد على ديمومة واستمرارية الحضارة المصرية القديمة وانتقالها عبر الجينات إلى الأجيال المتعاقبة.

مكانة المرأة

يؤكد الكاتب على أن المرأة حظيت بنصيب كبير في الفن المصري القديم، فإن ما وصل إلينا من تماثيل لها وصور تمثلها قد بلغ الكثير منها درجة تستحق الإعجاب، وخصوصا رأس الملكة نفرتيتي، وهذا الرأس يصلح لأن يكون موضوع دراسة فنية ممتعة،وهو في الوقت نفسه دليل على ما بلغه فن تل العمارنة من تقدم في عصر أخناتون،ويعطي فكرة رائعة لزائري المتاحف عن الفن المصري القديم على وجه العموم. وإذا انتقلنا إلى فن التصوير، وجدنا أن الفنان المصري قد احتفظ بطابعه التقليدي الذي بدا في فن النحت من حيث التفوق وأناقة العرض، ودارس الفن المصري القديم يعلم أن الفنان المصري قد استعمل الألوان بمهارة في إظهار الجسم من خلال الثياب الهفهافة، واستطاع أن يفيض على هذه الثياب من فنه فأظهرها بالغة الزينة، مما جعل الثياب المصرية الخاصة بالنساء آية في الأناقة، كما يتضح من صورة الملكة نفرتاري مع الآلهة أيزيس كذلك فالخيال البديع الذي يتجلى في أغانيهم أضفي على حفلاتهم جوا رائعا من العذوبة، تعكسه لنا صورهم البديعة التي التي تلعب فيها المرأة دورا أساسيا كعنصر رئيسي في الحياة.

وكان للمرأة في مصر القديمة مكانتها الممتازة في الأسرة والمجتمع، فاحترامها واستقلالها في مصر كانا أكبر من أي مكان في العالم القديم، فهي كابنة كانت ترث من والديها نصيباً يساوي نصيب الابن تماما.وكزوجة كانت تعتبر سيدة البيت (نبت بر) بحق،فهي تروح وتغدو كما تريد،تحدث من تشاء،وتفعل ما تشاء،دون أن تجد نفسها

مضطرة إلى تقديم حساب عن تصرفاتها لأحد،وكانت تختلط بالرجال دون حجاب،وتلقى قسطها الموفور دائما من الاجلال والاكبار.

إرث باقي

ولم تقتصر آثار المصريين القدماء على الحجر بل امتدت أيضا إلى البشر، ويشير الكاتب في الفصل قبل الأخير إلى المعتقدات المتوارثة من المصريين القدماء، بينما الفصل الأخير خصصه للعادات المتوارثة، وليست كلها عادات طيبة، فمثلا يذكر أن الكثير مما نشكوه من عيوب يجري في دمائنا بحكم الوراثة من آبائنا الأقدمين.فتمسكنا بالمظاهر الكاذبة وما تحتمه من تبذير شديد عيب قديم فينا وها هي النصوص القديمة تخبرنا بأن الملك رمسيس الثالث الذي كان يعطي ٢٠٠ ألف كيس من القمح سنوياً للمعابد، هو نفسه الملك الذي لا يستطيع أن يرسل خمسين كيساً من القمح شهرياً لعماله في الجبانة،وقد كانوا يتصورون جوعاً.

أما كرم المصريين وإسرافهم في الولائم والأفراح فهما موروثان أيضاً. فلطالما شهدت قاعات منازل الأثرياء في عصور الفراعنة ولائم رائعة كان يدعي إليها عشرات الصحاب والخلان وتتخللها الموسيقا والرقص والغناء.

وكان المصريون لا يدخرون وسعاً في أفراحهم وحفلاتهم، تماما كما نفعل اليوم، في تقديم الكميات الوافرة من اللحوم وألوان مختلفة من أطايب الطعام ؛إذ كانت تقاس عظمة الداعي بكمية ما يقدمه من طعام،

فإذا حان وقت الطعام غسل كل مدعو يده قبل الأكل،فكان يتقدم الضيف إلى رجل يصب على يده الماء من إبريق في طست يشبه كلاهما الطست والإبريق اللذين نستعملهما اليوم في الريف،فإذا فرغوا من أكلهم غسلوا أيديهم أيضاً كما نفعل اليوم. بل إن عادة إظهار الإعجاب بحسن صوت المغني أو المنشد أو إظهار الفرح العظيم بأن يلقي الشخص ملابسه أو طربوشه هي أيضاً عادة مصرية قديمة ورد ذكرها في متون الأهرام.

وكان المصري القديم يلجأ إلى الساحر إذا أراد التخلص من عدو. وتخبرنا النصوص أن الساحر كان يعذب هذا الشخص بما يطلقه عليه من أحلام مزعجة وأشباح مرعبة، بل إن الساحر كان يسلط عليه الأمراض فتنهك قواه. كما كان السحر يستخدم للتفرقة بين حبيبين أو زوجين.

وفي الريف نجد الحقول تقسم إلى مربعات صغيرة لتسهيل ريها بنفس النظام الذي كان يسير عليه المصريون القدماء، ونجد الحقول وقد انتظمت المحراث وتوارثته عن المصريين القدماء ولم تغير،مع توالي العصور عليه،لا من شكله ولا من طريقة استعماله، فإذا نما الزرع وآن أوان حصاده،فطريقة قطعه بالمنجل وهو نفس المنجل الذي كان يستعمله المصريون القدماء بشكله المعروف الذي أخذناه عنهم.وطريقتهم في التذرية هي نفس الطريقة التي كان يتبعها حتى وقت قريب،كما أن الأداة التي نستعملها فيها،وهي المذراة،هي بعينها لم تتغير منذ عصور قدماء المصريين طبقاً لما هو مرسوم على جدران المقابر.

فنحن – وبحسب الكتاب – نعيش في نطاق تركة خلفها لنا القدماء،تشدنا إليها سلسلة من التقاليد والعادات التي ترابطنا بها ربطاً وثيقاً لا نجد إلى فصم عروته سبيلا.

الناشر

الأثريون الأنجليز في مصر

ظلت مصر لفترة طويلة أرضا مباحة للباحثين عن الآثار.فمصر بحكم موقعها وتاريخها كانت صاحبة أكبر حضارة قديمة ظهرت في حوض البحر الأبيض المتوسط، فكان من الطبيعي أن يكون لها من الآثار ما يدهش كل من زار مصر في عهدها القديم والحديث.حتى عندما بدأت حضارة اليونان في الظهور فان كثيرين من فلاسفة اليونان وغيرها من الأمم المتحضرة التي ظهرت بعد ذلك قد وفدوا على مصر وتتلمذوا في جامعاتها ودرسوا علومها وفنونها ثم نقلوها بعد ذلك إلى بلادهم.ومن ثم انتشرت في أنحاء العالم أخبار عديدة عما في مصر من روائع الآثار،فهيرودوت المؤرخ اليوناني القديم الذي زار مصر حوالي عام ٤٥٠ قزم وغيره ممن جاءوا بعده من المؤرخين والزائرين حاروا في أمرهم :أيعجبون من الأهرام وجلالها،أو من المعابد الفخمة ذات الابهاء المتلألئة بما على جدرانها من ألوان زاهية،أو من المقابر وقد حوت سجلا فخما من الصور التي تبين أدق التفاصيل عن حياة المصريين القدماء وصناعاتهم ومدافق حضارتهم أو من تلك التماثيل العظيمة التي تمثل ملوكهم وآلهتهم ومشاهير رجالاتهم،تتفق في عظمتها مع عظمة تلك الحضارة الزاهية.فلا عجب اذن إذا كانت روائع الفن التي انتشر خبرها ففي جميع أرجاء العالم من قديم وحديث قد اجتذبت سيلا لا ينقطع وروده من الرجال يفدون على مصر يضربون في أرجائها باحثين

منقبين عليهم يجدون في أرضها من النفائس ما يملأون به وطابهم ويعد لهم ثروة ومورد رزق لا ينضبان.

هكذا كانت الحال قبل انشاء مصلحة الآثار المصرية،يفد على مصر كل من هب ودب فيبحث في أرضها ويستخرج منها ما شاء وشاء له جلده وصبره في العمل،ويعود بما عثر عليه إلى بلاده فيتصرف فيه كيف شاء وشاء له ضميره .

هذه الفترة من تاريخ التنقيب عن الآثار يصح أن نطلق عليها اسم الفترة الحرة الطليقة التي لم يكن فيها رابط لا من القانون ولا من نظام البلاد وقد تلت هذه الفترة فترة أخرى عمل فيها بعض المنقبين على أساس علمي،دون أن يكونوا مقيدين من قبل الدولة بقيود منظمة معينة.وهذه الفترة وما يليها هي التي تهمنا وهي التي نقصر البحث فيها عن نصيب المكتشفين الانكليز منها.

فلندرز بتري

ولعل أكبر شخصية تبرز لنا واضحة ظاهرة في هذا العصر هي شخصية العالم الانجليزي المعروف فلندرز بتري استاذ علم الآثار المصرية بجامعة لندن، فهذا الرجل قد وفد على مصر وظل ينقب بهمة أكسبته خبرة في عمله قدرها جميع الذين عملوا معه وشاركوه في حفائرهم،وإن الإنسان ليعجب كيف أمكن هذا الرجل في حياة محدودة بالسنوات لا بالأجيال ولا بالقرون أن يقوم بكل هذا العمل الضخم الذي قام به،وكيف عاونه صبره وجلده على احتمال اعباء هذا العمل المضني في

صحراء مصر وجبالها ومناطقها الأثرية دون أن يعتريه الملل أو يقف بهمته عائق.

وإذا نحن تكلمنا بصفة عامة فأننا نستطيع أن نقول أن هذا العالم بدأ حياة التنقيب عن الآثار حوالي عام ١٨٨٠.فأدار حفائر ناجحة في تأنيس (وهي المنطقة التي يقوم بالحفر فيها الآن العالم الفرنسي مونتيه حيث عثر فيها في العام الماضي على آثار رائعة للملك ششنق وبسوسنس وغيرهما من الملوك) أظهر عنها مؤلفا من جزأين (في عامي ١٨٨٥ و١٨٨٨) وكذلك في نقراطس ومؤلفه عنها معروف (عام ١٨٨٦).أما في الفيوم فان نطاق أعماله قد أتسع في منطقة شملت هواره واللاهون وكوم غراب وبيهمو وأرسنوى (ومكان الأخيرة الآن كيمان فارس)،ونشر عن حفائره تلك ثلاثة مؤلفات قيمة أولها عنوانه هواره وبياهمو وأرسنوى عام ١٨٨٩،وثانيها اللاهون وكاهون وغراب (وهي الحفائر التي قام بها في عامي ١٨٨٩ و١٨٨٩)وثالثهما كاهون [1] وغراب وهوارة وقد ظهر هذا المؤلف الأخير عام ١٨٩٠.أما في عام ١٨٩١ فقد أظهر هذا العالم مؤلفا آخر عن الحفائر التي قام بها في تل الحيسي (لاشيسن).وأعقب ذلك بحفائر ناجحة في ميدوم أظهر عنها مؤلفاً قيما في عام ١٨٩٢.ثم استمر نشاطه يزيد ويقوى فانتقل إلى تل العمارنة،وأخذ ينقب في هذه المنطقة الغنية بآثار الملك الشاب

---

[1] كاهون هو الأسم الذي أطلقه السير بتري على آثار مدينة قديمة تقع عل مسافة ميل وربع تقريباُ شمالي هرم اللاهون واسم المدينة القديم هو حتب سنوسرت لأن الملك سنوسرت الثاني (الأسرة الثانية عشرة) هو الذي أنشأها .وقد عثر فيها بتري عام ١٨٨٩ على أدوات وأوان منزلية بين خرائب منازلها ودورها

أخناتون.وأخناتون على ما يعلم الجميع هو الملك المجدد الذي اكتسب بثورته الدينية ومذهبه الجديد شهرة ذائعة وأهمية خاصة.فهذا الملك كان يبشر بالسلام وبدين جديد هو عبادة قرص الشمس (أتون).وهذا الدين لم يرض كهنة أمون في طيبة (مقر الملك) بطبيعة الحال،لأن في انتشاره هدما لسلطتهم وسلطة آلههم آمون العظيم،فأخذوا يضعون العراقيل أمام الملك حتى أضطروه إلى أن يهجر العاصمة طيبة (الأقصر الحالية) ويؤسس عاصمة جديدة لملكه هي تل العمارنة التي كانت تمتد على شاطىء النيل وبنى لنفسه فيها معابد لقرص الشمس وقصورا ملكية له ولأتباعه ودارا للمحفوظات وجتمعة وثكنات للبوليس والحرس ومقاير فخمة منقورة في الجبل إلى غير ذلك مما تستلزمه عاصمة جديدة عظيمة الشأن

ومن هذا ندرك مقدار أهمية منطقة تل العمارنة التي اتجهت أنظار عالما الأثري الانكليزي فلندرز بتري إلى التنقيب في أرجائها.ومن حسن الحظ أن حفائره قد أتت بنتائج باهرة دعته لأن ينشر مؤلفا علميا جليل الشأن عنها عنوانه «تل العمارنة» وذلك في عام ١٨٩٤

وكما يقولون في الأمثال أنه ليس أجلب للنجاح من النجاح فان هذه الأعمال الموفقة كانت دائما تحفز همته لعمل جديد،فأنتقل إلى فقط وأخذ يعمل وينقب وتوصل إلى نتائج هامة دون تفصيلاتها في مؤلف له عنوان «كبتوس» ظهر عام ١٨٩٦.ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر حفائره الناجحة في دشاشة والبهنسا وما أظهره عنهما من مؤلفات أولهما «كتالوج الآثار المستخرجة من دشاشة والبهنسا والكاب،الذي ظهر عام

١٨٩٧.و«دشاشة» الي ظهر عام ١٨٩٨. ولم تكن هذه الحفائر كلها لتشبع نهمه أو تحد من نشاطه،فقد اجتذبته دندرة إلى ناحيتها فذهب إليها عام ١٨٩٨ وأعمل فيها معاوله وظل يبحث وينقب حتى امتلأ وطابه بالأسانيد والنفائس الكافية لنشر مؤلف عنها من جزأين عنوانه «دندرة» ظهر عام ١٩٠٠.على أن الحفائر التي يعرفها كل مبتدىء في الآثار المصرية عن هذا العالم هي الحفائز التي قام بها في ابيدوس (العرابة المدفونة) ووجد فيها كمية من الفخار نظمها وبوبها ورتبها في درجات أتخذت أساسا لنظام تتابع التواريخ. وهو نظام معترف به إلى الآن.ولا يزال مؤلفه المشهور عن حفائره بابيدوس الذي ظهر في عامي ١٩٠٢ و ١٩٠٣ عمدة لعلماء الآثار وعلى الأخص فيما يخاص بالأواني الفخارية وترتيبها.ولم يقتصر نشاط هذا العالم الانكليزي على هذه المناطق – على كثرتها – وإنما تعداه إلى مناطق أخرى نذكر منها اهناسية التي قام بحفائره فيها عام ١٩٠٤ واخرج مؤلفا عنها في عام ١٩٠٥،ثم شبه جزيرة سيناء التي قام بأبحاثه فيها ونشر ومؤلفا عنها عنوانه «أبحاث بشبه جزيرة سيناء» عام ١٩٠٦،ثم الجيزة ومؤلفه عنها معروف ظهر عام ١٩٠٧،ثم تل أتريب الذي قام فيه بحفائر نشر عنها مؤلفا عام ١٩٠٨،ثم منفيس ومؤلفه عنها ظهر عام ١٩٠٩،ثم حفائره التي أجراها في جهة طوخان بمديرية الجيرز عام ١٩١٣ ومؤلفه عنها معروف

تلامذة بتري

ومما يجدر ذكره أن معظم العلماء والمنقبين الأثريين الأنكليز الذين

أشتغلوا في مصر بعد ذلك قد تتلمذوا على الأستاذ فلندرز بتري فترة من الزمن واشتركوا معه في حفائره اشتراكا فعليا اكسبتهم خبرة ومرانا في حياتهم الأثرية. فالعالم الانكليزي كويبل اشترك معه في حفائره بنقادة وبلاص وأظهروا معا مؤلفا عنها سنة ١٨٩٥،وكذا ماكاي اشترك مع الأستاذ بتري في حفائره بعين شمس وغيرها وأظهرا معا مؤلفا بنتائج الحفائر عنوانه «هليوبوليس وكفر عمار والشرفا» ظهر عام ١٩١٥.وكذا العالم وانريت الذي اشتغل زمنا كبيرا المفتشي آثار مصر الوسطى عمل زمنا مع الأستاذ بتري في حفائره بميدوم ومنفيس وأظهرا مؤلفا اشترك فيه ماكاي أيضا عنوانه «ميدوم ومنفيس» ظهر عام ١٩١٠.أما المستر برنتون الذي يعمل الآن أمينا بالمتحف المصري فقد عمل تحت إدارة الأستاذ بتري في حفائر بسدمنت أظهرا عنها مؤلفا من جزأين عام ١٩٢٤.وكذا في حفائر باللاهون أظهرا عنها مؤلفا اشتركت فيه السيدة مرجريت مري العالمة الانكليزية وعنوانه «اللاهون» (الجزء الثاني) ظهر عام ١٩٢٣.ولا ننسى أيضا فضل الأستاذ بتري على العالم الانكليزي انجلباك كبير أمناء المتحف المصري الآن،فقد اشتغل هذا معه فترة كبيرة في الفيوم وغيرها من الجهات كانت أساس خبرته في الآثار.

في غصون هذه الفترة الثانية أخذ المصريون ينتبهون إلى أنهم ملاك للأرض التي يحفر فيها هؤلاء العلماء،وأن هذه الآثار هي آثارهم وان لهم عليها وعلى المنقبين حقوقا طبيعية شرعية يجب أن تحدد وتوضع لها روابط وقواعد ثابتة، فصدر قانون الآثار عام ١٩١٢ وهو المعروف بالقانون رقم ١٤ الخاص بالآثار وصدر بعده قرار من (نظارة) الاشغال

العمومية بتاريخ ٨ ديسمبر سنة ١٩١٢ رقم ٥٢ يختص بأعمال الحفر للبحث عن الآثار التاريخية،بين كلاهما هذه الحدود على قدر المستطاع فصار يعطي ترخيص الحفر بموافقة لجنة الآثار العليا للعلماء أو لمن توصي بهم الحكومات والجامعات أو المجامع العلمية أو جمعيات معارف رسمية أو لأفراد من الثراة بشرط أن يعتمدوا في إدارة العمل عالم أو علماء مشهورين لهم الخبرة الأثرية المطلوبة.ثم صارت عقود الامتياز تنص على أن المكتشف ملزم بتسجيل نتائج حفائره واظهار مؤلف علمي عنها وأن من حق مصلحة الآثار أن تشرف على الحفائر وان ما يعثر عليه يكون من نصيب الدولة المصرية أصلا على أن تقتسم الحكومة معه ما يكون ثانوي الأهمية من الآثار طبقا لهذه الشروط أخذت تسير الحفائر من هذا التاريخ ولكن لكي نحيط بقصة الحفائر ونصيب الانكليز منها يجدر بنا أن نرجع خطوة إلى الوراء.

كانت الحكومة المصرية وقد أصبح لها مصلحة للآثار قد احتفظت لنفسها بحق الحفر في مناطق كعينة اختصت بها نفسها. ومن بين هذه المناطق منطقة وادي الملوك بطيبة (الأقصر).وقد قامت المصلحة بالفعل بحفائر في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر أدت إلى اكتشاف مقابر الملوك تحتمس الأول وتحتمس الثالث وامتحتب الثاني وغيرهم.

هوارد كارتر ومستر تيودور ديفز

وتشاء المصادفة أن يقوم ثري عجوز يدعى مستر تيودور ديفس برحلة في النيل وأن يعجب بجو الوجه القبلي إعجابا شديدا دعاه لأن

يشتري (ذهبية) قرر أن يقضي فيها شتاء كل عام إلى جوار طيبة (الأقصر).وتشاء المصادفة نفسها أن تكون اعتمادات مصلحة الآثار في هذه السنة (١٩٠٣) قليلة لا تقوى على الحفر ونفقاته فعرض هذا الثري على المصلحة التي يطعي مبلغا من المال لمستر هوارد كارتر (الأثري المعروف الذي اكتشف فيما بعد مقبرة الملك توت عنخ أمون) وقد كان كبيرا لمفتشي الآثار في هذا الوقت،لكي يقوم باستئناف الحفائر في وادي الملوك.وغنى عن البيان أن المصلحة قد رحبت بهذه الهبة على أساس أن يعتبر المستر دافيز نفسه كممول يقوم بالصرف على الحفائر بدلا من المتحف المصري دون أن يعطيه هذا الاعتبار أية حقوق بامتياز ما.. بدأت الحفائر اذن عام ١٩٠٢ ولم يأت عام ١٩٠٣ إلا وكانت مقبرة الملك تحتمس الرابع قد اكتشفت وفي السنة نفسها اكتشف المستر كارتر مقبرة الملكة حتشبسوت وتولى الصرف في كل هذا مستر دافيز الذي أصبح ممولا للحفائر التي تقوم بها الحكومة في هذه المنطقة التي اختصت نفسها بها في الأصل.

وفي عام ١٩٠٤ حل العالم الانكليزي مستر كوبيل مكان كارتر كبيرا لمفتشي الآثار بالأقصر واستأنف الحفائر بالشروط عينها وفي السنة التالية (١٩٠٥) عين ويجال كبيرا للمفتشين فأشترك مع كوبيل في الحفائر واكتشفا معا مقبرة يويا وتويا والدي الملكة تي.وفي نهاية هذا الموسم غادر كوبيل الأقصر، وفي الموسم التالي لم يستطع ويجال الذي كان مثقلا بأعباء وظيفته الرسمية الاستمرار في الحفائر فأتفقت مصلحة الآثار مع مستر دافيز الذي يمول الحفائر على أن يختار مستر أرتون

واستمرت الحفائر في السنوات التالية فأكتشفت مقبرة الملكة تي والملك أخناتون وحرمحب وسيتاح وغيرهم.وكان العمل يدور تحت إشراف كبير مفتشي مصلحة الآثار بالأقصر وما يعثر عليه كانت تتولى الحكومة نفقات نقله وشحنه وارساله إلى المتحف المصري بالقاهرة إذ كان واجب مستر دافيز يقف عند حد الصرف على الحفائر نفسها،أي على العمال الذين يقومون بالحفر وما يلزمهم من أدوات.

ومماتجدر الإشارة إليه أن مستر دافيز لم يكن يعتبر نفسه في وقت ما محسنا يتصدق بأمواله على عمل ما.وانما كان الأمر لا يتعدى الرغبة منه في وضع مبلغ من المال – كانت الحكومة ولا شك تستطيع أن تدبره بنفسها لإجراء حفائرها – وتخصيصيه سنويا لهذه الحفائر في مقابل ما يستمتع به من لذة ومفاجأة وأمل في العثور على كشف جديد.ولم يكن مستر دافيز هو الثري الوحيد الذي اجتذبته هذه الطريقة الرائعة لتمضية الوقت في فصل الشتاء.فإن الأقصر بحكم موقعها كانت بديعا يجتمع فيه الزوار والسائحون حيث يعيشون حياة ناعمة مترفة في فنادق فخمة أو في (ذهبيات)أو بواخر فاخرة،وفي هذا الجو الوديع لم يكن هنالك ما هو أروع لقضاء الوقن من إجراء حفائر يقوم بالعمل الفعلي فيها أشخاص آخرون.فكان كل ما يلزم الثري أن يستأجر عالما أثريا يقوم بالعمل الفني وعددا من العمال يعملون في الحفر،وكل هذا لا يكلف الثري سوى بضع مئات من الجنيهات.وفي مقابل هذا يجد الثري لنفسه هدفا معينا يذهب إليه ل يوم في نزهة لطيفة ويجد مجالا لأكلة شهية يأكلها في نزهته هذه وسط حفائره ويستمتع فوق هذا وذاك بالأمل

الواسع يسبح في وديانه وبخيالاته فيما ينتظره من النفائس التي ستكشف عنها الحفائر تتراءى له في أحلامه.

وهكذا كان اللورد نورثمبتون يحفر في جزء آخر من جبانة طيبة (الأقصر) وكانت اللادي ويلم سيسل تستمتع بقضاء شتاء بديع على هذا الشكل بين مقابر أسوان،كما كانت السيدتان مس بنسون ومس جورلي تكشفان عن جزء من معبد موت بالكرنك،كل واحد من هؤلاء مستعينا بعالم أثري يقوم بإدارة الأعمال بطبيعة الحال اللورد كارنارفون حياته كخفار، فقد اجتذبه جو الأقصر البديع ورغبته الملحة في إيجاد عمل يقضي فيه وقته،فأتفق مع المستر كارتر، الذي كان قد استقال من خدمة الحكومة المصرية على العمل وابتدآ حفائهم في جهات عديدة من جبانة طيبة وكانت الجهات التي اختارها اللورد لحفائره غير داخلة في المناطق التي احتجزتها الحكومة لنفسها ولذلك سمح له بأخذ نصف الآثار التي يكتشفها،على حين أن مستر دافيز الذي كان يعمل في وادي الملوك لم يستطع أن يأخذ شيئا مما يكتشفه.وبفضل ما خص اللورد كارنارفون من نصيبه في الحفائر كون مجموعة قيمة عرفت بأسمه ليس هنا مقام التحدث عنها.

وفي أواخر عام ١٩١٢ مات مستر دافيز فأنتهز كارتر الفرصة ورجا اللورد كارنارفون أن يتفق مع الحكومة على منحه ترخيصاً بالحفر في المنطقة التي كان يحفر فيها دافيز أي في وادي الملوك.وقد تمكن اللورد من الحصول على هذا الترخيص واستئناق أعمال المرحوم دافيز ولم يمض وقت طويل على هذا حتى قامت الحرب الكبرى فاضطر اللورد

ومدير أعماله كارتر إلى وقف الأعمال حتى انتهاء الحرب

وفي أواخر عام ١٩١٨ استأنفا الحفر في هذه المنطقة وظل العمل يجرى عاما بعد عام،وموسما يليه موسم حتى أشرفا على عام ١٩٢٢ دون أن يتوصلا إلى نتيجة ما حتى فكر الأثنان في ترك العمل أو البحث عن منطقة أخرى يكون العمل فيها أجدى وأكثر نفعا

ولكن المصادفة وحدها يحدوها الحظ الحسن دعت أحدهما (كارتر) إلى أن يحفر في منطقة تقع بجوار مقبرة رمسيس السادس كانت مشغولة في هذا الوقت بمبان هشة للعمال القدماء...كانت محض فكرة طارئة يريح كارتر بها ضميره قبل أن يطلق العمل في هذه الجبهة التي لم لورثه حتى هذا الوقت إلا التعب والجهد والألم، ولكن يا للحظ السعيد ويا للتوفيق الباهر إذ لم يكد كارتر في هذا اليوم التاريخي يقترب من العمال حتى سمع بينهم هرجا ومرجا،فأخذ يهرول في سيره حتى شارفهم فإذا هم في فرح ومرح شديدين،وإذا هم يعلنون إليه نبأ العثور على درجة منقوشة في الصخر.فحصها كارتر فعلت وجهه موجة من الفرح وأمر عماله بالاستمرار في العمل ولم يكتمل يوم ٤ نوفمبر سنة ١٩٢٢ حتى اكتحلت عيناه بمرأى سلم يحتوي على ست عشرة درجو ويليها باب مغلق عليه أختام فأبرق إلى اللورد كارنارفون الذي كان بانكلترة في هذا الوقت ينهي إليه الخبر السعيد الذي واتاه فرد عليه اللورد برقيا بأنه سيستقل أول باخرة يحضر بها إلى مصر.فأوقف كارتر العمل وردم الحفرة حتى يحضر سيده فيتمتع بثمرة أعماله،واكتفى كارتر بالاحلام تداعبه عن ماهية كشفه الجديد

حضر اللورد كارنارفون وفتح كارتر الحفرة ثانية وكشف عن الست عشرة درجة حتى وصل إلى الباب المغلق فإذا هما في حجرة مستعرضة كدست بأثاث ومحتويات يأخذ بريقها بالأبصار.وكان كل ما في الحجرة يتوهج تحت نور المصباح القوي،فقد كان الأثاث مغطى بصفائح من الذهب الخالص تتألق تألق الشمس في رابعة النهار

أصبح كارنارفون هو وكارتر بين عشية وضحاها من مشاهير الرجال، وسارعت الشركات البرقية والسينمائية ومندوبو الصحف ومندوبو مجلات الأزياء إلى الأقصر لنقل أخبار الاكتشاف العظيم.ولا نرى داعيا للأستمرار في سرد باقي القصة فهي لا تزال عالقة بأفكار القراء لحداثة عهدها وانما نكتفي بأن نقول أن هذا الاكتشاف قد وجه أنظار العالم كله إلى مصر وتوج أعمال كارنارفون وكارتر بما لا يستطيع إنسان أن يطمح في أكثر منه من مجد وشهرة.ولا شك في أن هذا الاكتشاف كان ولم يزل أهم اكتشاف ظهر في العهد الأخير.

آثارُنا التي لم تكشِفْ بَعْدْ

إن المجال لا يزال مسعا،والأمل لا يثفك متجددا في العثور على آثار جديدة لم تكتشف بعد،ليست خاصة بأفراد أو نبلاء فحسب،بل وخاصة بملوك وملكات أيضا

في عام ١٨١٥ وفد على مصر رجل إيطالي ضخم الجسم يدعى بلزوني،ولد أصلا في بادوا بإيطاليا من عائلة محترمة،ولكنه غادر بلاده على أثر بعض القلاقل الداخلية وذهب إلى انكلتره حيث ظل مدة هناك يمارس ألعاب القوى في الملاعب والحفلات.ويظهر أنه إلى جانب عمله الذي ذكرناه كان يستغل أوقات فراغه في دراسة الهندسة،وهذا مكنه من أن يوفق إلى اختراع ساقية أراد أن يكون لنفسه بها مجدا وثروة في مصر.فحضر إليها عام ١٨١٥ كما سبق القول،وقابل محمد علي باشا وأطلعه على اختراعه فسمح له الباشا بتركيبها في حديقة القصر.ويحدثنا بلزوني أن اختراعه لاقى نجاحا كبيرا،وأن هذه الآلة كانت تخرج كمية من الماء تعادل ضعفي كمية الماء التي تستخرجها السواقي العادية التي كانت مستعملة في هذا الوقت.ولكن المصرين لم يبدوا اهتماما كبيرا بها،ورفضوا أن يستعملونها مفضلين بقاء القديم على قدمه

لم يجد بلزوني بدا من أن يوجه اهتمامه إلى شيء آخ.ولما كانت مصر هي بلد الآثار،فقد اجتذبته ثروة البلد الأثرية المباحة،وظل خمس سنوات كاملة يبحث وينقب ويجمع الآثار في مصر.ولعل هذا الرجل هو

أول مكتشف ادار حفائر كبيرة في مصر بطريقة شبه نظامية،فكشف في وادي الملوك مثلا عن عدد كبير من المقابر نذكر من بينها كمقبرة آي ورمسيس الأول وسيتي الأول.ثم نشر كتابا عن حفائره في عام ١٨٢٠ ملأه بالقصص الطريفة والروايات الشيقة عن بحوثه وكشوفه.وقد ذكر في غضون كلامه أنه قد بحث وادي الملوك بحثا دقيقا وأنه –على حد قوله – «يعتقد اعتقادا جازما بأن وادي الملوك لا يمكن أن يعثر فيه على مقابر أخرى تزيد عنا اكتشف منها من قبل» ثم يستطرد في كلامه فيقول : «واني لم أترك هذا المكان إلا بعد أن بذلت كل مجهود ممكن لكي أعثر على مقابر أخرى جديدة ولكني لم أنجح في كشف شيء غير ما كشفته منها من قبل،ومما يثبت قولي،بصرف النظر عن البحوث التي أجريتها بنفسي –أنه بعد أن تركت المكان وغادرته ظل القنصل البريطاني سالت يبحث وينقب طوال أربعة شهور في وادي الملوك على أمل أن يعثر على مقبرة أخرى ولكنه لم يوفق».

وفي عام ١٨٢٠ عاد بلزوني إلى انكلتره وأقام معرضا عرض فيه كنوزه الأثرية ثم توفي بعد ذلك بأعوام قليلة وهو يقوم برحلة إلى تمبكتو

وبالرغم من اعتقاد بلزوني وتأكيداته الجازمة بأنه قد استوفى أرض وادي الملوك بحثا وتنقيبا فان لوريه مدير مصلحة الآثار حينذاك وفق في عام ١٨٩٨ إلى كشف مقابر ملكية عديدة نذكر منها مقبرة تحتمس الأول وتحتمس الثالث وامنحتب الثاني،ونخص الأخيرة منها بالذكر لأنها كانت قد اتخذت مخبأ في عهد الأسرة الحادية والعشرين لجثث ثلاثة عشر ملكا،وقد ظلت هذه الجثث سالمة إلى أن كشف عنها لوريه عام

١٨٩٨ كما أنه قد وجد جشة امنحتب نفسه صاحب المقبرة سليمة لم تمس في تابوتها الحجري كما وضعت منذ ثلاثة آلاف سنة أو تزيد وأن كان آثاث المقبرة ومحتوياتها قد سرق منذ زمن

وفي عام ١٩٠٢ حصل نرى أمريكي يدعى تيودور ديفز على امتياز بالحفر في وادي الملوك وظل ينقب هناك مدة طويلة.وبالرغم من تأكيدات بلزوني الجازمة بأن وادي الملوك لا يمكن أن يحتوي على مقابر أخرى جديدة إلا أن ديفز عثر فيه على مقابركثيرة منها مقبرة تحتمس الرابع وحتشبسوت وسى بتاح وتويا والملكة تي وحر محب.وفي عام ١٩١٢ أعلن تيودور ديفز أنه قد قتل وادي الملوك بحثا وتنقيبا وانه لا يمكن العثور فيه على مقابر أخرى ثم تنازل عن امتيازه في هذه المنطقة وانهى عمله.ولكن اللورد كارنارفون ومعه كارتر كان يداعبهما الأمل في العثور على مقبرة أخرى،فتقدما للحصول على عقد امتياز بالحفر وفي نفس المنطقة التي كان يحفر فيها ديفز من قبل أي في وادي الملوك.ومع أن تأكيدات ديفز كانت قاطعة،ومع أن ماسبرو مدير مصلحة الآثار حينذاك الذي أمضى لهما عقد الامتياز في يونيه عام ١٩١٤ كرر لهما أنه متفق في الرأي تماما مع ديفز،وأنه يعتقد أن وادي الملوك قد بحث تماما وأن المنطقة لا تستحق مجهودا جديدا من المحقق أنه سيذهب عبثا،بالرغم من كل ذلك نرى كارتر يقول أنهما قد تذكرا –هو واللورد –أنه منذ نحو المائة سنة أكد بلزوني هو أيضا تأكيد قاطعا أن وادي الملوك قد بحث بحثا تاما وأنه لا يحتوي على مقابر جديدة،ومن ثم فقد رفضا أن يقتنعا بأمثال هذه الدعاوي.بل أنها كانا

يعتقدان بعد أن فحصا الوادي فحصا جيدا أنه توجد فيه مناطق غطتها كميات الرديم التي ألقاها من سبقهم من الحفارين (القدماء والحديثين) لم تبحث بعد.ولو كان كارتر قد اقتنع بكل ما قيل له من قبل لما توصل إلى ذلك الكشف الفريد الذي يعد أبدع كشوف العصر الحديث وأروعها،ونعني به كشف مقبرة الملك توت عنخ أمون في عام ١٩٢٢.صحيح أنهما قد ظلا أعواما طويلة يحفران حتى يئسا،وأنهما قد فكرا مرارا في ترك العمل في هذه المنطقة،ولكن صبرهما ومثابرتهما قد كوفئا بهذا الكشف الذي هز العالم حينذاك،ولا يزال يجتذب حتى اليوم آلاف الجنود الذين يمرون بمصر إلى زيارة المتحف المصري والإعجاب بهذه الكنوز

***

يتضح لنا من كل ما سبق أن الظن بأن أرض مصر قد أخرجت لنا كل ما سبق أن الظن بأن أرض مصر قد أخرجت لنا كل ما في باطنها،وأطلقنا على جميع أسرارها،وباحث لنا بكل مكنوناتها،لهو ظن بعيد عن الحقيقة بعد الأرض عن السماء.إذ أنه يكاد يكون من المحقق أن كشوفا عظيمة يمكن الوصول إليها في المستقبل،ولكن هذه تستلزم فحصاً دقيقاً منظماً لطائفة من المناطق المختارة بعيانة بل أن نفس المنطقة الواحدة يلزم تقسيمها إلى أجزاء صغيرة تبحث بحثاً دقيقاً،وتحفر حتى يعمل الباحث في حفائره إلى أعظم عمق ممكن،إن لم يكن إلى القاع الصخري نفسه مستعيناً بكل ما مر به فن الحفائر من تجارب واختبارات واتقان.ويجب على الباحث ألا ينتظر من حفائره نتائج عاجلة

في كل عام،أو كشوفاً رائعة كتوت عنخ أمون،إذ أن أول صفة يجب أن تتوفر في باحث الآثار الذي يدير حفائر علمية منظمة أن يتذرع بالصبر ويتحلى بالمثابرة،وأن يجعل باب الأمل أمامه فسيحا، ومن بين هذه المناطق التي نتوقع العثور فيها على آثار لم تكتشف بعد منطقتا الجيزة وصقارة،ونحن لا نشك مطلقاً في أن الحفائر المنظمة التي تدور الآن وفي المستقبل في هاتين المنطقتين ستوصل إلى كشوف تجلو لنا حقائق تاريخية هامة وتضيف إلى تاريخ هذا العصر صفحات جديدة

أما منطقة أبي صير فالمجال فيها واسع لبعض الكشوف.ففضلاً عن أن هذه المنطقة قد اتخذت مكاناً لأهرامات ملوك الأسرة الخامسة كالملك سحورع ونفر اركارع وني أوسر رع ولمعابدهم الجنازية،وهذه كلها كشفت عنها حفائر البعثة الألمانية بين عامي ١٩٠٢–١٩٠٨ الا أنه كان لهؤلاء الملوك معابد شمسية،كشف عن أحدها وهو الخاص بالملك ني أوسر رع،أما الاثنان الآخران وهما معبدا الشمس الخاصان بالملكين سحورع ونفرار كارع فانه لم يعثر عليهما حتى الآن،ولا شك في أن حفائر منظمة تجري في هذه المنطقة سوف توصل إلى الكشف عنهما،أو على الأقل عن الجدران السفلية منهما،إذا كانت العليا قد تهدمت وزالت

أما في عصر الفترة الأولى الذي يمتد من الأسرة السابعة حتى نهاية الأسرة العاشرة،فإن ما كشف عنه من آثار هذا العصر ضئيل إلى حد كبير،ولا شك في أن مستقبل الحفائر كفيل بأن يجلو لنا –بما يعثر عليه من الآثار –الكثير من الغموض الذي يحيط بهذا العصر.أما في الأسرة

الحادسة عشرة فلا تزال مقبرة الملك منتوحتب الرابع (نب توى رع) غير معروفة،وأننا إذا لاحظنا أن من سبقه من ملوك هذه الأسرة دفنوا إما في طيبة أو في الدير البحري لامكننا أن نحكم بأن مقبرته سيكون العثور عليها في إحدى هاتين الجهيتن

فإذا وصلنا إلى عصر الفترة الثانية التي يمتد من الأسرة الثالثة عشرة حتى نهاية الأسرة السادسة عشرة نجد هناك احتمالات كثيرة إذا أوصلنا في يوم ما إلى كشوف مهما كانت قليلة فان قيمتها ستكون كبيرة جداً،نظراً لما يعتور هذا العصر من غموض،خصوصا إذا لاحظنا أن هذه الفترة هي التي دخل فيها الهكسوس مصر وحكموها،وأن أي أثر يمكن أن يصل إلينا سالما (وسكون قد نجا من يد المصريين بعد أن طردوا الغزاة من أرضهم) من عصرهم يكون ذا قيمة كبيرة

أنا في تل العمارنة،أي في تلك المدينة التي أسسها الملك أخناتون واتخذها عاصمة لملكه،فإن جانباً من الأبنية التي شادها والمعابد التي أنشأها قد كشف عنها في السنوات الأخيرة،إلا أنه ينتظر العثور على جانب آخر من هذه المباني،وهي وإن كانت قد بنيت من مواد هشة كاللبن إلا أن آثارها يمكن العثور عليها،ومن بين هذه الأبنية التي عرف أن العاصمة المذكورة كانت تحتويها :قصران للملك أحدهما على شاطىء النهر والآخر يقع على مقربة منه في داخل المدينة،وبيت الحفوظات وبناء الجامعة – وتسمى بالمصرية القديمة بيت الحياة – ومركز البوليس وثكنات الجيوش،هذا خلاف المعابد التي كشف عن بعض منها

أما في الأسمونين (على مقربة من ملوى) فإلى جانب ما ينتظر العثور علي من آثار فرعونية فان المدينة الرومانية بأكملها تنتظر الباحث السعيد الذي يزيح النقاب عن كثير من خفاياها.ولدينا من الأسانيد والوثائق ما يساعد على هذا البحث.فقد عثر في هذه المدينة على عدد كبير من أوراق البردي بها نصوص تدل على أن هذه المدينة كانت تنقسم إلى أربعة أحياء تضم عمائر فخمة ذكرت النصوص منها :حمامات الأمبراطور هدريان والأجورا –أي السوق التي كان يجتمع فيها الناس،والتي تقول عنها النصوص أنها من أحسن العمائر الزخرافية التي متزدان بها المدينة –والمكتبة وغيرها.يضاف إلى ذلك سلسلة من المعابد أهمها معبد أثينا ومعبد هدريان والسرابيوم ومعبد الإلهة أفروديتي ومعبد الحوريات والمعبد الأوغسطي.ومن حسن الحظ أن وزارة المعارف قد قدرت أهمية هذه المنطقة حق قدرها فأعتمدت مبلغاً من المال في عام ١٩٤٢ وعهدت إلى كاتب هذه السطور في إدارة حفائر علمية منظمة بهذه المنطقة

وقد بدأت هذه الحفائر في المكان الذي كانت تشغله الأرجوار – أي في منطقة السوق المستطيلة التي كان يجتمع الناس –فكشفت عن عدد كبير من المواد الضرورية والعناصر المعمارية اللازمة كالأعمدة الضخمة الجرانيتية وقواعدها وتيجانها الجميلة المصنوعة من الحجر الجيري والقوائم والزخارف والأعتاب وكتل الأحجار المنقوشة وغيرها من المواد التي تسمح بإعادة تشييد هذه السوق بأعمدتها المصنوعة من الجرانيت الأحمر فنسترد مر بذلك سوقا مهيبة تكتنفها العمد من

الجانبين في بوائك فخمة لا يوجد لها نظير في أية جهة من جهات القطري المصري.وقد بدأت مصلحة الآثار على أثر الانتهاء من حفائري في نصب الأعمدة، واجراء ترميمات كثيرة لإعادة السوق على نحو قريب مما كانت عليه في العصر الروماني.ولا شك في أن هذا البناء الذي لا يعادله بناء آخر في وادي النيل سيجتذب إلى مصر الوسطى جمهور السائحين وسيؤدي إلى تنشيط موسم السياحة بعد الحرب

ولما كانت أوراق البردي التي أشرنا إليها قد ذكرت أن المدينة الرومانية كان يشقها طريق عظيم ييتجه من الشرق إلى الغرب ماراً بالأجورا –أي السوق–كان يدعى طريق أنطنوي، وكان يحيط به بوائك فخمة في بعض أجزائه وينتهي من طرفيه بقوسى نصر على شكل بوابتين عظيمتين كانت تدعى إحداهما بوابة القمر –إلى الغرب –والأخرى بواية الشمس –إلى الشرق –فقد عولنا على البحث عنه إلى أن وفقنا إلى العثور عليه بعد أن أزلنا أكواماً ضخمة من الأتربة والردم الذي يغطيه فظهر بعظمته وجلالته.وقد وجدناه مرصوفاً بالأحجار،يقوم على أحد جوانبه افريز من الأحجار،وعلى الجانب الآخر قناة بها مجرى كانت تستعمل لتصريف مياة الأمطار.وقد وجدنا جزءاً كبيراً من هذه القناة وكذا الأفريز في حالة حفظ جيدة.أما الأجزاء الناقصة فالعمل يجري في ترميمها وإعادتها إلى ما كانت عليه سابقاً.أما الطريق نفسه فبالرغم من أن بعض الأحجار التي استعملت في رصفه قد فقدت إلا أنه يمكن تتبع آثار هذا الطريق بكل وضوح وجلاء.وهذا الطريق العظيم يجري أمام أعمدة الأجورا –السوق الرومانية –الشمالية ويمتد شرقاً وغرباً

ومما يجدر بالذكر أن هذه الحفائر قد أصبحت تابعة الآن لجامعة فاروق الأول، ومن المنتظر أن يؤدي استمرار العمل فيها إلى الكشف عما تبقى من أجزاء هذه المدينة الهامة ومعابدها وقصورها وشوارعها.فتسترد مصر بذلك منطقة رومانية العهد الأمبراطوري ذات القيمة الفنية والتاريخية العظمى بالشكل الذي كانت عليه أيام مجدها السالف.ومن المحققأن الكشف عن باقي آثار هذه المدينة الرومانية – هرمبوليس –التي تمثل عصراً من عصور مصر الخالدة لهو أول غرض يجب أن ترمي إليه الحفائر التي تجري في هذه المنطقة، أما في طيبة «الأقصر» فإننا نعلم أن معظم ملوك الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين قد دفنوا في وادي الملوك أو على مقربة منه.وقد بينا فيما سبق أن وادي الملوك قد دارت فيه حفائر كثيرة،وأنه يكاد يكون قد بحث بحثاً تاماً،ونضيف إلى ذلك أن جزءاً صغيراً من هذا الوادي هو الذي ظل إلى الآن دون بحث.وكما أنه من المحتمل ألا يعثر فيه على مقابر ملكية أخرى إلا أنه من المحتمل أيضاً أن يعثر فيه على مقبرة أو مقبرتين نذكر منهما مقبرة سمنخ كارع مثلا.كما أنه يتبقى الكشف عن بعض مقابر ملكات الأسرة الثامنة عشرة وأمرائها وأميرتها،كما أنه من الممكن العثور فيه أيضاً على مقابر أخرى لبعض وزراء هذا العهد ونبلائه. أما مقابر كبار الموظفين فينتظر العثور على جانب آخر منها في التل الذي يعرف بالشيخ عبد القرنه بجبانة طيبة، وكذا يمكن العثور على بعض مقابر الأفراد في هذه الجبانة.

ولما كان من المعروف أنه ابتداء من الأسرة التاسعة عشرة بدأ

استعمال المكان الذي يعرف الآن بوادي الملكات لدفن الملكات والأمراء والأميرات فإنه ينتظر العثور أيضاً على مقابر أخرى لبعض الملكات والأمراء في الوادي المذكور

وعندما نصل إلى الأسرة الحادية والعشرين نجد أن جثث بعض ملوكها قد عثر عليها في المخبأ الذي أودعت فيه جثث بعض الفراعنة،وحفظاً لها من الضياع على أثر ما حدث من سرقات في العصور السابقة.أما مقابرهم الأصلية فلم يعثر على معظمها حتى الآن، ويظهر أنهم دفنوا في جبانة لا تبعد عن وادي الملوك نفسه أو في تانيس بالوجه البحري.فهذه المقابر لا بد وأن يعثر عليها في يوم من الأيام،وربما أظهرت الحفائر المقبلة أن معظمهم قد دفنوا في مقابر متصل بعضها بالبعض الآخر،وإن اللصوص قد أخطأوها فظلت سليمة حتى الآن.وإن كان قد عثر على مقابر لبعض ملوك هذه الأسرة في تانيس كالملك بسوسنس الأول ثاني ملوك هذه الأسرة والملك أمنموبي

أما الملوك الوطنيون الذين حكموا مصر ابتداء من الأسرة الثانية والعشرين إلى الأسرة الثلاثين فان معظمهم استقر في الوجه البحري ودفن هناك.وعلى ذلك فان أغلب مقابرهم تكون قد تعرضت للرطوبة بحكم وقوع أغلبها في منطقة الأراضي المنزرعة التي تروى في كل وقت وحين.ومع ذلك فقد عثر على بعضها بجبهة تانيس «صان الحجر» إحداها لملك يسمى ششنق من ملوك الأسرة الثانية والعشرين.وينتظر العثور على البعض الآخر إذا أجريت حفائر منظمة بهذه المناطق –تانيس وسايس ومنديس وبوبسطه.. إلخ.

ويحدثنا هيرودوت أن مقابر فراعنة الأسرة السادسة والعشرين أقيمت في معبد سايس على مقربة من الهيكل. ولكن ما بقى من هذه المدينة بقرب صا الحجر لا يشجع الباحث كثيراً،ومع ذلك فحيث توجد الأحتملات يحسن عمل المحاولات

أما ملوك البطالسة فقد دفنوا حول مقبرة الأسكندر الأكبر بالإسكندرية.ويحدثنا بلوتارخ أن كليوبطرة آخر ملكات مصر شادت لنفسها ضريحاً فخماً ألحقته بمعبد إيزيس بالإسكندرية.ففي هذا البناء مات انطونيو وفيه انتحرت كليوبطرة،وفي هذه المقبرة الواحدة طويت آخر صفحة من سجل ضخم تضمن تاريخ المقابر الملكية في مصر جميعها.وما زالت هذه الصفحة الأخيرة في انتظار من يكتشفها ويحسر النقاب عنها.

من كل ذلك يتضح أن المجال لا يزال واسعاً والأمل ينفك متجدداً في العثور على آثار جديدة لم تكتشف بعد،ليست خاصة بأفراد أو نبلاء فحسب،بل وخاصة بملوك وملكات أيضاً.وحسن الحظ وحده هو الذي يوصلنا إلى العثور على مقابر لم تسبقنا إليها يد المصريين بسرقة أو تخريب،فنسترد بذلك لمصر تراثاً من المجد والفخار تزيد قيمته على مدى الأيام وتعاقب القرون.

أبو الهول.. ذلك اللغز الخالد

اشتهرت مصر منذ قديم الزمان بأنها بلد العجائب، لما تضمه أرضها من آثار رائعة كان القدماء يعدون بعضها ضمن عجائب الدنيا السبع. وليس هناك من بين الآثار التي تزخر بها مصر أثر يهتز له الخيال،وتتحرك له المشاعر،مثل أبي الهول الكبير بالجيزة،وذلك الأسد ذو الرأس البشري،الرابض على الهضبة عند حافة الصحراء،يشرف على وادي النيل الأخضر الجميل،متجهاً بوجهه نحو الشمس المشرقة.

ويبلغ طول أبي الهول ٥٧ متراً،وارتفاعه ٢٠ متراً،وعرض الوجه خمسة أمتار،أما الأذن فتبلغ ١,٣٧ من المتر، والأنف ١,٧٠ من المتر،والفم ٢,٣٣ من المتر، ولقد أثار هذا التمثال دهشة الناس في العالم، قديمه وحديثه، وذاعت شهرته في كا مكان،وتغنى بذكره الشعراء، وخلده الفنانون والموسيقيون،وكتب عنه المؤرخون،ومع هذا كله فقد بقى أبو الهو لغزاً كبيراً وسراً غامضاً على مدى الأجيال والقرون.ومرد ذلك إلى ما اكتمل في هذا الأثر من عظمة طاغية،فيها سحر وفيها سخرية وتعال وسمو،وفيها من بعد ذلك كله خفاء وغموض.

وأمر أبي الهول من الناحية التاريخية لا يخلو من التعقيد،وان كان القول الراجح أنه نحت من صخرة ضخمة كانت توجد في هذا المكان من النهضة،أضيفت إليها قطع أخرى من الحجر في بعض الأجزاء،فشكلت على هيئة الأسد الذي اتخذ له رأساً بشرياً يمثل الملك

خفرع باني الهرم الثاني.وهو يقع إلى شمال الطريق الممتد بين المعبد الجنازي العلوي ومعبد الوادي للملك «خفرع»،ومن ثم فقد رجح المؤرخون أنه نحت في عصر الملك «خفرع»،وقصد به عند اقامته أن يمثل الملك،ويرمز جسم الأسد إلى القوة البدنية،والرأس البشري إلى قوة العقل

ثم تعاقبت القرون واختلف المصريون القدماء أنفسهم في أمره،ويطالعنا التاريخ في عصر الدولة الحديثة بنصوص تسجل إقبال الناس على ذلك الأثر الخالد،يقدسونه تقديساً بلغ حد العبادة،ثم امتد هذا التقديس إلى عهد الرومان،بدليل ما وجد حوله من لوحات تبين اهتمام الملوك والأمراء بأمره،ورفع الرمال التي كانت تغطيه،وفي بعض هذه اللوحات أشير إلى تمثال أبي الهول كأنما هو يمثل الإله «حو —ام – أخت» أي حورس في الأفق،يرمزون به إلى آله الشمس

وفي اللوحة التي كتبها تحتمس الرابع تعبد لهذا الاله،وسؤد لما قام الملك استجابة للرغبة التي أبداها الأله حورس من إزالة الرمال التي تراكمت حول أبي الهول.والواقع أن هذا الملك لم يكتف بإزالة الرمال بل زاد على ذلك أن بنى سوراً من اللبن،أحاط بالجهات الأربع جميعا،ثم على مشافة أخرى غرب هذا السور أقام سوراً آخر ليحمي السور الأول من اغارة الرمال

وقد عثر في الحائر التي أجريت لتنظيف المنطقة التي تحيط بأبي الهول على عدد كبير من اللوحات التذكارية،أهمها لوحة الملك

«امنحتب الثاني»،التي أقامها في هذا المكان لتخليد ذكرى زيارته لمنطقة الهروم وأبي الهول،وقد ورد فيها ذكر أبي الهول على أنه هو الإله «حو —ام –اخت»،أي حورس صاحب الأفق.كما تدل النصوص والبحوث التي أجريت في هذا المكان على أن الملوك منذ عصر الأسرة الثامنة عشرة حتى نهاية العصر الروماني، كانوا يزورون هذا المكان ويعتبرونه مكاناً مقدساً،كما كان الأهالي يتقربون إلى أبي الهول بتقديم القرابين واللوحات التذكارية

على أن هذه المنطقة التي تقع حول أبي الهول كانت تعتبر منطقة صيد وقنص أيضاً، فقد زارها لهذا الغرض أحد أبناء «تحتمس» الأول،ثم تحتمس الثالث،وأمنحتب الثاني صاحب اللوحة التي أشرنا إليها فيما سبق،ثم تحتمس الرابع الذي مر ذكره،وقد كان أميراً لم ينول الملك بعد.وكان يلهو بالصيد في هذا المكان من الصحراء الذي اشتهر بكثرة ما فيه من أسود وغزال،فلما تعب آوى إلى ظل أبي الهول،يلتمس عنده شيئاً يزيل الرمال عنه،ووعده بولاية العرش،ففعل تحتمس ما طلب منه،وبر الاله بوعده فولاه عرش مصر

وقد زار هذه المنطقة أيضاً «أمنحتب الثالث»،ثم الملك الشاب «توت عنخ أمون» الذي أقام لنفسه في هذه المنطقة مكاناً للراحة شيده من اللبن،وجعل فيه حماما يستحم فيه بعد الصيد والقنص،كما جاءها الملك «آي» ثم «حور محب»، ثم «سيتي» الأول الذي أقام لوحة ذكر فيها صيدا وافر من الأسود وغزال،ثم رمسيس الثاني ثم «منفتاح»،وقد خلف نقوشا تدل على شدة اهتمامه بأبي الهول.وهكذا تواترت زيارة

الفراعنة والأباطرة لهذا المكان حتى عهد الأمبراطور «سبتمس سفرس» ١٩٣-٢١١ بعد الميلاد

وربما جاءت تسمية هذا الأثر بأبي الهول من اسم آله أجنبي هو «حورون» أو «حول» الذي كان يعبده قوم من الكنعانيين،وفدوا على مصر في عهد الدولة الحديثة،وسكنوا في منطقة أبي الهول، وجدوا شبها بين الههم «حول» والإله «حور» في اللفظ والشكل،فكلاهما على هيئة الصقر، ومن ثم حرف هذا الاسم مع مرور الزمن إلى كلمة أبو الهول،التي تطلق عليه الآن

ومن ذلك يتضح أن أبا الهول قد اشترك في عبادته المصريون والساميون على السواء،واعتبروه الها للموتى وحارساً للمقبرة!

التبرج عند قدماء المصريين

كان الشعب المصري من أشد شعوب العالم القديم ولعاً بالزينه والتأنق وبكل ما يزيد مظهرهم جمالاً،وسذراً جذابا.فنحن إذا عدنا بالمصريين القدماء إلى أقدم عصورهم، أي إلى عصر ما قبل الأسرات لوجدنا في أقدم مقابرهم وأبسطها، أي في تلك الحفر البيضية الشكل، مجموعات مختلفة من أدوات الزينة كالعقود – التي كانت تتخذ حياتها من الحجر الجيري والكوارتز أو الأحجار الكريمة كالعقيق والأماتيست – والأساور والأمشاط التي كانت تضه من العاج والعظم والصدف.وقد وجد في كثير من هذه المقابر إلى جانب رأس الميت ألواح من الشست الأخضر متعدد الأشكال، فمنها المربع والمستطيل، ومنها ما يماثل في شكله الحيوان أو الطير كفرس البحر والسلحفاة والسمكة والعصفور. وكانت تستعمل كألواح يصحن عليها الكحل ليتكحل به الرجال والنساء على السواء. وقد وجدت هذه الألواح عالقة بها آثار الكحل ظاهرة بجلاء، وفي الأسرة الأولى عثرنا في مقابر أبيدوس على أربعة أساور من الذهب والفيروز والأمتست وجدت على ذراع ملكة كانت مدفونة هناك ثبت منها أن دفن الصياغة وصل إلى درجة عظيمة من الرقي حتى في هذا العصر القديم كما عثر على مجموعات أخرى من العقود أتخذت حياتها أشكالا مستطيلة أو مستديرة أو وريدات صغيرة،كما عثر على مجموعة من الحلى بجهة نجع الدير يرجع تاريخها إلى الأسرة الأولى أيضا تتميز

من بينها حلى جميلة للصدر صنعت من صفائح الذهب فهذه المجموعات المختلفة من الحلى تدل دلالة واضحة على أن المصريين القدماء كانوا منذ أقدم عصورهم مولعين بالتجمل وبأن يزينوا أنفسهم «بكل ما هو حسن وجميل» على حد تعبيرهم.

وفي أواخر الأسرة الثالثة وأوائل الأسرة الرابعة نجد لدينا من الأمثلة ما يثبت لنا أن المصريين القدماء كانوا شديدي التأنق في ملبسهم،يرتدون ثيابا هي وإن كانت بسيطة في بعض الأحيان إلا أنها تكتسب جمالها وأناقتها من بساطتها ومن ذلك الذوق السليم الذي يوحد بين أجزائها ويفيض عليها انسجاما بديعا وتناسقا خلابا.

فالثوب الذي ترتديه الأمير (نفرت) بسيط،فهو بسيط رقيق محبوك يلتصق بجسدها ويتفتح من الأمام عند الصدر،وهو في مجموعه مهلهل ضيق يكسو الجسم من الثديين إلى القدمين،ولكنه في بساطته هذه يبرز محاسن الجسم ومفاتنه في ابداع جميل جعل منه نموذجاً رائعاً للأناقة وحسن الذوق ولعل هذه الظاهرة هي التي نلمسها أيضا فيما بقى من وينتها.فالشعر المستعار الذي يحيط بوجهها توج بشريط مزخرف بزهيرات جميلة،كما أن الشعر الطبيعي الذي يرى على الجبهة صفف بعناية فائقة فزادها جمالاً ورشاقة

أما العصنق فقد حلى بقلادة عريضة انحدرت فوق الصدر.ولكن السحر كله تنقثه عيناها،فان بريقاً خلاباً يتلألأ فيهما،وأن أثر الكحل في تجميلهما لقوي شديد.ونحن نستطيع بقليل من الخيال أن نتصور جارية

(نفرت) الجميلة وقد فتحت صندوقاً صغيراً يحوي ألوانا من الدهون والطيوب والخيوط والكحل،ونستطيع أن نتصورها وقد أغمدت فرشاة في الأثمد المانع،ومست به أهداب سيدتها،ونستطيع أن نراها وهي تخرج مرودا من مكحلة تخط به خطين أسودين يمتدان إلى ما يلي لحاظ عينيها نحو الصدغ،ثم وهي تطلي جفنيها وما حولهما من محجريها بمسحوق رصاصي أدكن،ثم وهي تزجج حاجبيها بعناية ودقة وتصطلي شعرها ووجهها وعنقها وصدرها وجسمها بالطيب والزيت الثمين، ثم وهي تدهن شفتيها ووجنتيها بمسحوق أحمر تتم به زينتها ومع هذا كله، فأننا لسنا في حاجة إلى كثير من الخيال لنتصور ما قدمنا ذكره،فلدينا من الوثائق والأسانيد والآثار نفسها ما يثبته كله،فقد ورد في ورقة تورين البردية رسم يمثل سيدة تطلي شفتيها بالأحمر وهي تتأمل أمر زينتها في مرآة أمسكتها بيدها اليسرى وفي نفس اليد حق به أحمر السفتين.بل أن لدينا نقشاً آخر ورد على تابوت السيدة (كاويت) إحدى محظيات منتوحتب،من ملوك الأسرة الحادية عشرة،نرى فيه «كاويت» جالسة وفي يدها قدح شراب بينما تشتغل إحدى الوصيفات في ترجيل شعرها وتصفيفه،تعقصه وتحبكه ثم تشبكه بدبابيس شعر لعلها من الذهب الخالص،بينما نرى (كاويت) ممسكة في يدها الأخرى بمرآة من المعدن المصقول كانت لا شك تستخدمها لترقب أصابع جاريتها وهى تنساب وتتلوى بين غدائر شعرها الغني الغزير.

ولعل أول ما يلفت نظر المطلع على الصور المصرية القديمة أو المشاهد للتماثيل المصرية،مبلغ تعلق قدماء المصريين باظهاره آثار

التكحل في عيونهم.فهم كعامتنا الآن —والشعوب الشرقية على وجه العموم —كانوا يعتقدون أن الكحل يوسع عيونهم ويجلوها ويساعد على اظهار ما فيها من فتنة وحيوية.وهذه العادة ظهرت منذ أقد العصور.وكان أحسن أنواع الكحل يدعى عندهم (مسدمت) وكانوا يضعونه في أوان (مكاحل) ذات أشكال لطيفة.

أما الدهون والطيوب والزيوت الثمينة فقد كانت عنصراً هاماً لازماً في الحياة اليومية في مصر القديمة يعادل في أهميته الطعام الذي يقتاتون به.ففي أحد المصوص يشكو العمال من أنهم لا يجدون لقمة عيش يبلغون بها،ولا طيوبا يتجملون بها.على أن هناك أنواعاً من الطيوب كان يستجلبها أثرياء القوم من البلاد الأجنبية (وخاصة من الشواطىء الجنوبية للبحر الأحمر) وكانت تباع في مصر بائمان مرتفعة وأهمها نوع يدعى (كمي) ورد ذكره كثيراً في النقوش وكان يستعمل على الأخص في الدولة الحديثة لتضميخ الشعر.ومن هنا نستطيع أن نفهم حب المصريين للعطور ولتكرار ذكرها في أغانيهم عندما نراهم ينرنمون في حفلاتهم الموسيقية فيقولون : «لو كنت جاريتها السوداء التي تتبع خطواتها لاستطعت أن اتبين حقيقة لون بشرتها،ولو كنت أعمل في دارها ماشطاً ولو شهراً واحداً لأستطعت أن أغسل الدهان الذي تخضب به عصابة رأسها» أو حين يقولون : «إذا هممت بعناق حبيبتي وانفتحت ذراعاها لمقدمي فعندئذ أحس كأن طيوب بلاد بونت (بلاد الصومال الحالية جنوب البحر الأحمر) تنسكب علي ويتضمخ بها بدني».

وكانت الزيوت والعطور في مصر القديمة رمزاً على البهجة

والسرور.ففي المهرجانات التي كانت تقام عند مرور الموكب الملكي كان يصب الناس «زيتاً عطرياً على رؤوسهم وعلى عصابات رأسهم» كما أنه قلما كانت تخلو حفلة من حفلاتهم من الجرار الملأى بالطيوب والزيوت العطرية يغمسون فيها قطعا من القماش ويمسحون بها في رفق شعرهم وجلدهم ثم يدلكون بشرتهم وأجسامهم.وكان الملك إذا أراد أن يكرم شخصاً في إحدى هذه الحفلات أمر رجال بلاطه بتضميخ بدنه بالطيوب وأن يلبسوه ثياباً جميلة ويعطوه حليا فاخرة، ولم يقتصر المصريون القدماء على تدليك بشرتهم بالدهون،بل أنهم كانوا يجهزون الطيوب بشكل خاص ثم يضعونها على النار وعندئذ تصير «رائحة المنزل والملابس زكية مستحبة» كما تقول النصوص المصرية،كما أنهم كانوا يخلطون على هذه الطيوب والعطور عسلا ويشكلون هذا الخليط حبوبا تمضغها «النساء فتجعل أنفاس أفواههن طيبة الرائحة» كما ورد في نص مصري قديم.

أما غرام المصريين القدماء بالحلى فيدل عليه ذلك العدد الوفير الذي عثرنا عليه منها في مقابرهم.ولعل أظهر أمثلة لها تلك المجموعة البديعة التي اتحفتنا بها مقبرة توت عنخ أمون.وهي تتكون من قلائد وعقود وتمائم وأساور وخواتم وأقراط وغيرها.وكانت الأقراط تعلق في الأذن بواسطة أزواج من أنابيب صغيرة من الذهب،تدخل الواحدة منها في الأخرى.وعند أطراف هذه الأنابيب أقراص يختلف بعضها عن بعض في الحجم وجمال الزخرف،وهي ترين بأشكال الحيات المقدسة أو رؤوس الطيور التي تصنع من الذهب أو العقيق أو الزجاج.ويتدلى من

لعض الأقراط عدة سلاسل على شكل حيات أو فروع صغيرة من الخرز

أما حلى الصدر فهي تصنع في المعتاد من الذهب أيضاً وتطعم بالزجاج والأحجار وتصاغ في أشكال جميلة جذابة تحليها الآلهة والرموز المقدسة.وفي واحدة منها وجدت بمقبرة توت عنخ أمون نجد الحلية تتكون من سفينة من الذهب تحمل قرص الشمس من الفضة وهي عائمة في بركة برزت فوق سطحها سيقان اللوتس من الذهب المطعم باللازورد وحجر الفلسبار الأخضر.أما السلسلة فتتألف من أربعة صفوف متوازية،من خرز طويل وآخر مستدير من الذهب والأحجار نصف الكرمة والرانينج.والثقل يمثل باقة من اللوتس تنتهي بخرز منظوم في فروع صغيرة.وفي حلية أخرى صنعت من الذهب المطعم بالأحجار نصف الكريمة نجد جعلا كبيراً من اللازورد في سفينة ويحيط بهذا الجعل ثعبانان.أما السلسلة فمزينة بألواح صغيرة وجعلان أخرى ومحلاة برموز مختلفة وتنتهي بعقابين ناشرين اجنحتهما وحاملين ثقلا عليه ثعبانان

أما الأساور فكانت تصنع في المعتاد من الذهب وتطعم بالأحجار وتحلى بجعلان كبيرة من اللازورد أو بصقور جاثمة أو بعيون رمزية من القيق أو غيره من الأحجار.وبعضها كان من النوع القابل للألتواء وهو يتكون من خرز من الالكتروم واللازورد والعقيق والزجاج ويوجد على قفله (مشبكه) في المعتاد جعل كبير من اللازورد أو الأمنست أو غيرهما من الأحجار

أما الخواتم فكانت تصنع من الذهب في المعتاد،وتتخذ فصوصها

أشكالاً أنيقة فبعضها صنع فصه على شكل جعل من العقيق الأبيض أو الفيروز أو سفينة الشمس،وبعضها من النوع المزدوج أو الثلاثي،فصوصه مرصعة بالزجاج أو اللازورد أو حجر اليشب. وبعض الخواتم يصنع على شكل الثعبان وبعضها يكون مركبا من صلين (ثعبانين) متجاورين من الذهب المرضع بعجينة الزجاج.وكان المصريون القدماء يكثرون من لبس الخواتم،فعلى بعض أصابع السيدات نجد خاتمين أو ثلاثة في أصبع واحدة.وفي أمثلة أخرى نجد جميع أصابع اليدين وقد تحلت بالخواتم النفيسة.على أن اليد اليسرى كانت تفضل في المعتاد لوضع الخواتمي فيها وبخاصة الأصبع الثالثة منها الذي كانوا يختصونها بعدد أكبر من الخواتم

أما أدوات الزينة التي عثر عليها في مقابر المصريين القدماء وتمتلىء بها متاحفنا الحديثة فاهمها،قناني وأحقاق وأوان للعطور والطيوب والزيوت الثمينة،ومكلحب مع مراودها ومرايا من المعدن مع العلب التي كانت تحفظ فيها،ودبابيس الشعر والأمشاط،وملاعق مساحيق الزينة وغيرها، والأمشاط المصرية كانت تصنع في المعتاد من الخشب وذات حدين أحدهما أسنانه كبيرة والآخر صغيرة،وهي تشبه على العموم في شكلها أمشاطنا البلدية الحالية.أما الجزء الأوسط منها الذي يقع بين الحدين فينقش في المعتاد بنقش محفور أو يطعم.على أن بعضها الذي كان يصنع من حد واحد كان يزخرف بأشكال الحيوانات. أما المكاحل فقد كانت تصنع في المعتاد من الحجر أو الخشب أو العظم أو العاج،أو الفخار وبعضها كان يحتوي على عينين أو أربع أو

خمس عيون يوضع في كل عين منها مسحوق يختلف في لونه أو نوعه عن الآخرين.وبعض المكاحل بسيط الشكل لا يعدو أن يكون علبة صغيرة أو أنبوبة بسيطة أو إناء صغيرا،والبعض الآخر كان يزين بأشكال حيوان الاله بس (اله المرح والسرور والموسيقى)يمثل وكأنه يمسك بالمكحلة، أما الدبابيس فهي في المعتاد طويلة ولها رؤوس من الذهب وتستعمل في شبك الشعر عند عقصه وحبكه ويظهر أن عادة تخضيب الأصابع واليدين بالحناء عادة قديمة في مصر والشرق القديم على وجه عام.

ويجدر بنا ألا ننسى أداة هامة من أدوات الزينة هي المرآة.وكانت تصنع في مصر القديمة من المعدن الذي يكون عادة النحاس أو البرونز أو الذهب أو الفضة،ويصقل صقلاً تاماً بحيث يصبح شديد اللمعان.وتوضع المرآة التي تكون عادة شله مستديرة في يد أو مقبض من الخشب أو العاج أو المعدن أو الحجر.ويد المرآة تتخذ أشكالا طريفة،فمنها ما يكون على شكل ساق النبات (أواز) الذي يدل على الشباب والغنوة والنضارة.ومنها ما يكون على شكل امرأة أو زهرة أو عمود أو ساق تعلوه رأس هاتور الهة الحب والجمال والفرح أو رأس (بس) اله السرور والمرح.وكانت تحفظ المرايا في علب أنيقة تتخذ أشكالا مختلفة بعضها على شكل (عنخ) رمز الحياة وبعضها على شكل رمز ملايين السنين. وهذان الشكلان وجدا بمقبرة توت عنخ أمون وهما من الخشب المكسو بأوراق من الذهب.وكان الكثير منها ينقش برسوم الزهور والطيور أو برسيم فتاة تحمل باقة زهور كالمثال الذي عصر عليه

في مقبرة الملكة (حنت نوي).

أما القفازات فلدينا منها أمثلة رائعة وجدت في مقبرة توت عنخ أمون صنعت من أقمشة مزخرفة وملونة وتنتهي بأشرطة تربطها من أطرافها (يدل الأزرار الحديثة) وليس ثمة شعب كالمصريين أغرم باستعمال الزهور في كل مناسبة يزين بها النساء ثيابهن المتألقة وأرديتهن الجميلة ويضعنها في شعورهن ويقدمنها لأزواجهن.وكان الضيوف يعطون عادة زهرة من اللوتس واكليلا بوضع حول الرأس أو قلادة حول العنق، بل أن باقات الزهور والقلائد المصنوعة منها كانت تزين بها القواعد التي توضع فوقها الأواني في غرف المنادمة وكان يلبس الخدم يتجانا من الزهر عند حمل الخمر إلى الجلساء،بل كانت أنية الخمر تكلل أيضا بالزهور.

فكل ما أوردناه من صور ونصوص وأسانيد قاطعة في الدلالة على غرام المصريين بالتجمل وحبهم للزينة والتأنق،ليس في ملابسهم فحسب،وإنما في طرائق معيشتهم وكل ما تقع عليه أنظارهم

الحرب عند قدماء المصريين

كانت مصر منذ قديم الزمان،كما يقول «سترابون» بلد أمن وسلام،فبحكم موقعها الجغرافي،يحدها البحر الأبيض المتوسط من الشمال وتحصنها سلسلنا جبال ليبيا والعرب من الشرق والغرب،وتقوم إلى جنوبها بلاد الزنوج، وهم أقوام ضعاف فقراء،كل ذلك جعل مصر قانعة بعيشها،مقفلة في وجه الأجانب من كل جهة.

الجيش المصري في الدولتين القديمة والوسطى

لم تكن الأحوال في الدولتين القديمة والوسطى تدعو إلى تكوين جيش وطني عظيم،فمع تسليمنا بأن الزنوج وقبائل البدو فيما وراء حد مصر الجنوبي كانوا من الفقر بحيث كانوا يغيرون من وقت لآخر على حدودها،إلا أن غاراتهم لم يكن هدفها سوى سرقة المواشي ونهب القوافل،وكان التغلب عليها وردها على أعقابها ميسورا لا يستدعي مقدرة حربية ممتازة جيشا قويا منظما

لذلك كان ملوك مصر في هذا العصر يعتمدون على الفرق التي يقدمها أمراء المقاطعات إلى فرعون عند الحاجة،فكان جيش البلاد حينذاك يتألف من تلك الفرق فيتكون منها جيش مختلط.ولعل أكبر حرب قامت بها مصر في عصر الدولة القديمة وبقي لنا وصف شامل لحوادثها هي الحرب التي شنها الملك «بيبي» على «الاسيويين الذين

يعيشون بين الرمال» (ولعل النص يقصد قبائل البدو التي عاشت جنوبي فلسطين واغارت على أراضي الدلتا الخصبة لإيجاد مرعى لمواشيها.فهذه الحرب كانت من الخطر بحيث لم يعتمد «بيبي» في الأصل كبيرا للقضاة ونال حظوة خاصة لديه.ويظهر أن فرعون كان قليل الثقة بمقدرة أمراء الاقطاع الحربية،فأحتاج إلى شخص كفء يستطيع الاضطلاع بمهمته وتنفيذها على الوجه الأكمل،فكان هذا الشخص هو «أوني» الذي يحدثنا في النقوش التي كتبها على جدران مقبرته بالآتي:

«أعلن جلالة الملك الحرب على قبائل البدور الاسيويين،فجمع جيشاً كبيراً يتكون من عشرات الآلاف من الرجال جلبهم من جميع أنحاء البلاد ابتداء من الفنين (أسوان) في الجنوب حتى أقاصي الشمال،وضم إليهم رجالا أخذوا من المعابد والقلاع وبلاد الزنوج،ووضعني جلالته على رأس هذا الجيش،فزحفت به ومزقت بلاد البدو عشر ممزق وقلبت معالمها وهدمت قلاعها وأهلكت زرعها وكرومها،وقتلت جيوشها،وعدت بجموع غفيرة من الأسرى»

الأسرة الثانية عشر كان لكل أمير من أمراء الاقطاع جيشه الصغير المحلي يرأسه موظف يلقب «بالمشرف على الجنود» كان ينوب في الرئاسة عن الأمير نفسه،وكان من النادر أن يكون لهذه الجيوش عمل،فكان هذا المشرف يعمل في زمن السلم في الاشراف على المزارع هو وجنوده،أو في مرافقة بعثة ترسل إلى المناجم أو المحاجر في الصحراء،فكان عملهم أقرب إلى أعمال البوليس منه إلى أعمال الجيش، على أن الاهتمام بتدريب الجنود وتمريناتهم كان أمرا ذا بال في عصر

الدولة الوسطى،فما لدينا من نقوش رسمت على جدران مقابر بني حسن يرينا سلسلة من الحركات والتمرينات العسكرية التي كان يزاولها الجنود بخفة ونشاط،كما أن مناظر الاستيلاء على القلاع واقتحامها التي وجدت بكثرة على جدران هذه المقابر يثبت لنا أن المصريين في هذا العصر كانوا يهتمون بالأمور الحربية إلى حد كبير.

الفراعنة ينشئون خطاً حربياً

على أنه ما يلفت النظر في عصر الدولة الوسطى،أن المصريين بذلوا مجهودات جبارة في تحصين النقط الضعيفة في حدودهم الطبيعية ليحموا بلادهم من اغارة البرابرة.فأقام «سنوسرت» الثالث على حدود مصر من جهة الجنوب خطاً حربياً مكنه من الرقابة والسيطرة على مياة النيل من جهة،وسد الطريق في وجه سفن الزنوج القادمينلامن الجنوب من جهة أخرى،بأن اختار «قمة» الواقعة على الشاطىء الأيمن من النيل والتي تمتاز بمناعة طبيعية بحكم وقوعها على تل تحيط به المهاوي والحفر من كل ناحية،فأحاطها بسور متين تقوم فيه قلعتان بارزتان من الجهتين الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية،وهاتان القلعتان تشرفان على المدخل من جهة،وعلى طريق الماء من جهة أخرى.أما «سمنة» فقد كان أقل حصانة وملاءمة،فهي تقوم على الشاطىء الأيسر للنيل،وليس هناك ما يحيمها سوى جبل يقوم في الجبهة الشرقية منها،بينما تقف الجهات الثلاث الأخرى مكشوفة للعدو،فرئى اقامة سور حولها.وبلغ من حرصهم أن بنوا سورا آخر داخل هذا السور على بعد مائة قدم منه،ثم ردموا المساحة التي يحيط بها السور الداخلي،فصار الجزء الواقع بين

السورين أشبه شيء بالخندق.

متى تعلم المصريون فن الحرب

دار الزمن دورته وضعفت مصر حينا من الدهر تمكن العدو منها،فدخل الهكسوس البلاد وحكموها وكونوا الأسرات الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة،وكانوا في أول أمرهم ظالمين،ولكنهم عدلوا عن ذلك فيما بعد،وتطبعوا بكثير من الطباع المصرية وشيدوا كثيراً من المعابد والمباني،واتخذوا لهم معبودا مثل معبود المصريين،واكتسب منهم المصريون فوائد عادات عليه بالنفع،فان الهكسوس أدخلوا الخيل في مصر ومنهم تعلم المصريون الفنون الحربية وتعبئة الجيوش الجرارة،ليس هذا فحسب بل أن نجم مصر الحربي بدأ يتلألأ منذ ذلك الوقت كنتيجة لما اكتسبه المصريون من خبرة عسكرية ودربة في تلك الحروب التي أخذ يقوم بها ولاة مصر الشرعيون لإخراج الفاتحين من الهكسوس واستئصال شأفتهم من البلاد،حتى تمكن «أحمس» الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة من غزو الهكسوس في عاصمتهم «أواريس» وطردهم منها،ثم اقتفى أثرهم وغزاهم ثانية في شاروهين بالجنوب الغربي من فلسطين فأفتتحها بعد حصار دام ثلاث سنوات، وبدأت بطولة ملوك الدولة الحديثة تظهر بحكم وجود أول جيش ثابت منظم للدولة،فلم يكتف هذا الملك بهذا النصر وإنما ةالي حروبه في الشام وبلاد النوبة،ولم يشغله هذا عن توجيه عنايته إلى الأمور في داخل بلادهم،إذ قام بحملات انتصر فيها على الأمراء الوطنيين الذين حاولوا أن ينازعوه السلطة وأفناهم عدا أعوانه المخلصين مثل أمير الكاب،فدانت له جميع البلاد بالطاعة.

مجد مصر الحربي

بدأ منذ ذلك العصر مجد مصر العسكري في التألق، فلسنا نعرف ملكا من ملوك هذه الأسرة (الثامنة عشرة) أو الأسرات التالية، أو الدولة الحديثة على العموم،تولى الملك دون أن يقوم بأعمال حربية ممتازة،أما لتأديب العصاة في البلاد المجاورة،أو لاضافة مستعمرات جديدة إلى الأمبراطورية المصرية.فلدينا «أمنحتب» الأول وغزواته في الشام والنوبة معروفة،وتلاه تحتمس الأول الأول الذي انتصر في جميع الغزوات في الشام وبلاد النوبة وأرض الجزيرة،وتم له اخضاع بلاد الكوش (النوبة) نهائيا،وكان يعود للمصريين بالأسرى والغنائم الكثيرة فيزيدون في ثروة البلاد.وعندما أتى «تحتمس» الثالث الذي لقبه الكثيرون «نابليون» مصر القديمة،كانت في البلاد أكبر قوة عسكرية مدججة بالسلاح في العالم القديم أجمع،فقد كان تحتمس عندما تولى العرش فتى عريض لبصدر مفتول الساعدين ذا قامة فارعة وعينين تنمان عن صادق العزيمة والتونب (كما يثبت ذبك تمثاله الموجود بالمتحف المصري)، فتمكن بعد فترة وجيزة من الحكم أن يخلق لمصر أمبراطورية مترامية الأطراف جاوزت حدودها نهر الفرات شمالا والشلال الرابع جنوبا. وكان ببلاد الشام في تلك المدة عدة ولايات صغيرة خاضعة لنفوذ مصر فشقت عصا الطاعة،فخرج إليها تحتمس في السنة الثانية والعشرين من تتويجه ونزل بجيشه عل السفح الجنوبي لجبال الكرمل،وكانت جيوش الأعداء يقودها ملك «قادش» قد عسكرت في «مجدو» فاقسم تحتمس ليكونن في طليعة الجيوش فولى الأعداء مذعورين تاركين معظم

النفائس بمعسكر ملك قادش غنيمة باردة للمصريين ثم حاصر «مجدو» فسلمت إليه بعد بضعة أسابيع، ثم رجع إلى مصر بعد أن غاب عنها ستة أشهر.

وكان صيته قد طار إلى مدينة بابل فتودد ملكها لفرعون وأهدى إليه الأحجار الكريمة والجياد البابلية المطهمة.وقد غزا تحتمس بلاد سورية ثانية وثالثة ورابعة. وكانت أهم أعماله فيها إتمام اخضاع البلاد.ثم أوغل في الغزوة الخامسة ففتح «أرواد» وغيرها من المدن الفينيقية وغنم منها.وفي الغزوة السادسة حاصر «قادش» ولم تسلم إليه إلا بعد حصار طويل لمناعة موقعها.وفي مدة الحصار شق أهل مدينة «ادوار» عصا الطاعة فذهب إليهم «تحتمس» في السنة التالية وأخضعهم وأخذ منهم الجزية ومن جميع بلاد الشام.ثم تأهب لغزو بلاد ما بين النهرين،ففي السنة الثالثة والثلاثين من حكمه مر بجيشه من «قادش» إلى «قرقميش» ثم عبر نهر الغرات وأقام وراءهنصبا بجانب نصب «تحتمس» الأول دون عليه نبأ وصوله إلى تلك البقعة ثم سار جنوبا حتى وصل مدينة «نينوي» وبعد أن فتحها لبث ثمة قليلا للرياضة يتصيد الفيلة،وكان أمراء بين النهرين يقدمون له الجزية اقرارا بخضوعهم له وقد زادت قوة تحتمس الثالث من مهابة أساطيلة البحرية فأصبح ملك قبرص أشبه بوال له،وصارت الأسطول المصري يلقي الرعب في النفوس فأكسب مصر نفوذا يمتد من شرقي البحر الأبيض إلى ما وراء بحر ايجه وكان له فائدة كبيرة في فتح الشام.

ملوك مصر يبتهجون للقتال

بهذا الفن الحربي المنظم والجيش القوي الثابت أخذ ملوك الأسرة التاسعة عشرة يجدون لذة في الحروب،حتى أصبح حب الحرب صفة لازمة في الملك تعادل في لزومها عبادة اله من آلهتم،فما تكاد الأخبار تأتي إلى الملك بأن رؤساء قبائل البدو قد أخذوا يثورون حتى «يبتهج قلبه بأن زمن القتال قد حان ويهرع إلى الحدود فيجتازها وينزل في العدو ذبحا وتقتيلا».

المرأة في الفن المصري القديم

كان للمرأة نصيب كبير في الفن المصري القديم، فإن ما وصل إلينا من تماثيل لها وصور تمثلها قد بلغ الكثير منها درجة تستحق الإعجاب والتقدير.ونحن إذا بدأنا بدرسة طائفة من التماثيل، فإن أول تمثال يستثير إعجابنا الشديد في الدولة القديمة كتحفة من تحف الفن الغالية هو تمثال الأميرة نفرت، فهذا التمثال الذي وجد «ماريت» في ميدوم عام ١٨٧٢،يرجع تاريخه إلى أوائل الأسرة الرابعة،وهو يمثل لنا رقي فن النحت في عصر منفيس.

كانت نفرت أميرة يجري في عروقها الدم الملكي،ومن هنا نجد في تمثالها مظاهر العظمة والمهابة التي وفق المثال إلى اظهارها بمهارة في تمثاله .والتمثال يمثل نفرت (ومعنى اسمها «الجميلة») جالسة بطلعتها المهيبة وقوامها الجميل،وهي ترتدي ثوبا محبوكا يلتصق بجسدها البض،وينفتح من الأمام عند الصدر.وتحت هذا الثوب الرقيق نرى الكنفين والنهدين يبرزان بل نرى الججسم كله في بضاضته وقد مثل بأقصى أناقة ورشاقة وفي الواقع فانه من الصعب أن نجد تمثالاً آخر في مصر قد بلغ فن النحت فيه ذروته، من حيث دقة تمثيل العنق والنهدين وبضاضة الجسم وهي تتجلى جميعا من خلال هذا الثوب الرقيق الذي ترتديه نفرت. أما الوجه المستدير فيحف به شعر مستعار كنيف مقصوص يحيط به فوق الرأس شريط زخرف بزهيرات جميلة.وعلى

الجبهة يرى الشعر الطبيعي وقد صفف بعناية فائقة فزادها جمالا ورشاقة.

أما الرقبة فقد حليت بقلادة عريضة انحدرت فوق الصدر ويكاد يكون الثوب الذي ترتديه نموذجا بديعا لثياب الشهرة عند سيداتنا الحديثات،فهو مفتوح من الأمام عند الصدر،ومثبت فوق الكتفين بشريطين أنيقتين من النسيج نفسه،وهو فيي مجموعه مهلهل ضيق يكسو الجسم من الثديين إلى القدمين،ويبرز محاسن الجسم ومفاتنه في ابداع جميل وتناسق خلاب، أما العينان ففيهما من السحر شيء كثير،فلقد اكتسبنا بريق الحياة بما رصعتا به من أحجار أفاضت عليهما أكبر قسط من صدق التعبير.ونحن لا نعدو الحقيقة حين نقرر أن كل هذه المميزات مجتمعة جعلت هذا التمثال أكثر التماثيل المصرية إظهارا للحياة،خاصة إذا لاحظنا أن ألوناه قد احتفظت بزهائها ونضارتها بدرجة مدهشة، فلا شك في أن الفنان قد بذل مجهودا عظيما في تصوير هذه الأميرة الجميلة (نفرت) واعطائها الملامح الحقيقية،مع جمال التصوير والنحت، وروعة الألوان التي استعملها في تغطية الحجر الجيري الذي صنع منه التمثال.

رأس الملكة نفرتيتي

أما هذا الرأس الجميل الذي يعتبره الكثيرون أبدع قطعة فنية خلفها لنا فن النحت في العالم القديم كله،فقد وجد العالم الألماني (بورشارد) في مصنع المثال (تحتمس) بتل العمارنة عام ١٩٠١٢، ونقله إلى متحف برلين حيث هو محفوظ الآن.وهو مصنوع من الحجر الجيري الملون.

كانت الملكة نفرتيتي زوجة الملك اخناتون جميلة حقا، ويظهر أن

جمالها قد أثار في نفس تحتمس –أحد فناني تل العمارنة – عواطف مختلفة من الحب والتقدير،دعته لأن يعلن هذا الاعجاب في قطعة فنية جاءت بالغة الروعة والإبداع. فهذا الرأس لم يصنع لغرض ديني كسائر التماثيل المصرية، وإنما صنعه فنان أوتي قلبا خفاقا وذوقا سليما ومهارة فائقة،أما ليحلى به مصنعه الذي يشتغل فيه لكي يكون دليلا على قدرته وشهادة بفنه، وأما أن يكون قد صنعه ليزين به أحد أبهاء القصر الملكي، وهذا الفارق على جانب عظيم من الأهمية،إذا علمنا أن جميع التماثيل المصرية كانت تصنع لغرض ديني،وأن هذه أول قطعة فنية صنعت من أجل الفن لا الدين.ونحن نستدل على نظريتنا هذه بأن القطعة كاملة في نفسها،وأنها لم تكن يوما من الأيام متصلة بتمثال فليس هناك أي أثر لهذا الاتصال،بل على العكس،فإن جميع الدلائل تدل على أنها قطعة نصفية (بست) يقف مثالو العصر الحديث أمامها حائرين.

وهذا الرأس يصلح لأن يكون موضوع دراسة فنية ممتعة،وهو في الوقت نفسه دليل على ما بلغه فن تل العمارنة من تقدم في عصر أخناتون،ويعطي فكرة رائعة لزائري المتاحف عن الفن المصري القديم على وجه العموم.وقد بذلت الحكومة المصرية جهودا كبيرة لاسترداد هذا الرأس واعادته إلى مصر،ولكن جماله ودقة صنعه كانت تدعو الحكومة الألمانية إلى الاستمساك به.

فن النقش والتصوير

فإذا نحن انتقلنا من فن النحت إلى فن التصوير، وجدنا أن الفنان

المصري قد احتفظ بطابعه التقليدي الذي رأيناه في فن النحت من حيث التفوق وأناقة العرض.فجمال الخطوط التي يتعملها في إظهار الشكل المراد رسمه، وحسن اختيار الوضع والتأنق في استعمال الألوان،كل أولئك صفات بارزة في رسومه وصوره.وكل من درس شيئا عن الفن المصري القديم يعلم كيف أن الفنان المصري قد استعمل الألوان بمهارة عندما أراد أن يظهر الجسم من خلال الثياب الهفهافة،وكيف استطاع أن يفيض على هذه الثياب من ذوقه وفنه فأظهرها بالغة الزينة عظيمة الرواء، مما جعل الثياب المصرية الخاصة بالنساء آية في الأناقة وحسن الزي والهندام،كما يتضح ذلك من صورة الملكة نفرتاري مع الآلهة أيزيس.بل أن الفنان كان حاذقا في فنه عندما نراه في رسوم مقابر طيبة وغيرها يعطي اللحم لونا داكنا حيث هو غير مغطى وأصفر فاقعا عندما يكون مستورا،وبذلك نرى أن المصور قد حاول أن يظهر الجلد الدافىء وو يضىء من خلال ثوبه الكتاني الشفاف.

ولدينا من هذه الصور البديعة نماذج رائعة تدل على مهارة الفنان وعلى أخذه نماذجه من الحياة مباشرة.فالرسم الذي يمثل فتاة راقصة وهي تقوم بألعاب بهلوانية صورة جديرة بالاعجاب،لما فيها من حركة تنبض بالحياة وجمال يستهوى الفؤاد، وفي مقبرة (نخت) بطيبة،صور تعتبر تحفا من تحف الفن.فالصورة التي تمثل ثلاث فتيات موسيقيات هي تحفة بديعة أثارت وما تزال تثير إعجاب كل من رآها.

نرى فيها الموسيقية الأولى وهي تلعب على أوتار جنك، والثانية العارية وهي ترقص وقد حملت ربابا،والثالثة تنفخ في مزمار مزدوج.وليس

من شك في أن الفنان قد أبرز في صورته كل ما حبت الطبيعة به هاته الموسيقيات من جمال واعتدال قوام،كما أنه قد أظهر الملابس الرقيقة الشفافة بشكل جذاب لطيف.

أما الصورة الأخرى التي تمثل حفلة موسيقية اجتمعت فيها طائفة من السيدات الدعوات،فهي صورة جميلة يزيدها جمالا أناقة السيدات وقد جلسن على حصير يتحدثن ويستنشقن عبير زهور اللوتس ويقدمن الفواكه بعضهن إلى البعض الآخر،بينما تقوم خادم عارية بوضع عقد من الزهور حول عنق إحدى السيدات.وفي هذه الحفلة الموسيقية نرى السيدات وقد جلسن جميعاً يصغين إلى عواد أعمى يعزف على آلته مختلف الأناشيد وأغنية الحب والغرام

ونحن إذا لم يكن في استطاعتنا أن نعيد إلى ألحان موسيقاهم شحبيها وترجيعها العذب،فنحن على الأقل نستطيع أن نقرأ بعض النصوص التي تحتفظ لنا ببعض أغانيهم،فنستطيع بذلك أن نتصور مبلغ فخامة هذه الحفلات التي كانت تفيض بالأن والحبور،وتمتلىء بعشرات المدعوين والمدعوات، فها هو المحب يغني بصوته الرقيق فيقول : «سأرقد على سريري وقد اعتراني المرض وسيعودني جيراني،ولكن إذا حضرت حبيبتي فستهزأ بأطبائي لأنها تعرف سر مرضي.ما أجمل بميت حبيبتي تحيط به البساتين والبحيرات،ها هو بابه أراه مفتوحا،وها هي حبيبتي تخرج غاضبة.ليتني كنت عبدا لها أقوم على حراسة الباب حتى اتلقى أوامرها وحتى أنعم برقيق صوتها حتى ولو كانت غاضبة. أنه ليطيب لي أن أمون كالطفل أهتز أمامها من الخوف وأرتعد»

فتجيبه حبيبته : «ا أنا معك. هات قلبك يا حبيبي. أنك إذا داعبت ساقي فلن أمنعك.وإذا كنت في حاجة إلى الطعام فسوف أهبك زادا كثيرا ومتاعا وفيرا.وإذا جئت إلى طمآنا إلى الحب فسوف أرضعك أفاويق الغرام.أن حبك يمتزج بشغاف قلبي كما يمتزج النبيذ بالماء،وكما تسري العطور في الدهان،وكما يمتزج اللبن بالعسل،لقد أتيت لترى حبيبتك كما يحوم الطائر حول أليفه»

فيجيبها الفتى:

«لكم تمتزج آلامي بالأناشيد

« ولكنك أنت يا جسد حبيبتي حقل ملىء بازاهير اللوتي

« ولأنت يا صدر حبيبتي الناهد لاحقاق مملئت بالروائح والطيوب

« ولأنت يا يهود حبيبتي لفاكهة (تثير أشجان الغرام)

« ولأنت يا محيا حبيبتي لحلو يفوح شذاه»

فهذا الخيال البديع الرائع الذي يتجلى في أغانيهم كان يضفي دون شك على حفلاتهم جوا رائعا من العذوبة،تعكسه لنا صورهم البديعة التي نراها على الجدران،وهي الصور التي تلعب فيها المرأة دورا أساسيا كعنصر رئيسي في الحياة.

الزواج عند قدماء المصريين

هل كان تعدد الزوجات عند قدماء المصريين أمراً شائعاً، وهل كان زواج الأخ بالأخت حقيقة،وما مكانة المرأة حينذاك ؟

كانت للمرأة في مصر القديمة مكانتها الممتازة في الأسرة والمجتمع تستمتع فيهما بنصيبها الكامل من الاحترام والتقدير بل أن احترامها واستقلالها في مصر كانا أشد ظهورا منهما في أية جهة أخرى من جهات العالم القديم،فهي كابنة كانت ترث من والديها نصيباً يساوي نصيب الابن تماما.وكزوجة كانت تعتبر سيدة البيت (نبت بر) بحق،فهي تروح وتغدو كما تريد،تحدث من تشاء،وتفعل ما تشاء،دون أن تجد نفسها مضطرة إلى تقديم حساب عن تصرفاتها لأحد،وكانت تختلط بالرجال دون حجاب،وتلقى قسطها الموفور دائما من الاجلال والاكبار. وهي تستيقظ في الصباح البكر،فتوقد النار،وتعد طعام الافطار،فيفطر زوجها وأولادها،وينصرف الرجل وأكبر الأبناء إلى أعمالهم،ويذهب الصغار مع الماشية والأوز لترعى.فإذا تم لها هذا، خرجت هي إلى الترعة المجاورة لتملأ جرتها،أو لتغسل ملابسها، ثم تعود إلى منزلها مزودة بما يكفيها من الماء بقية اليوم.وقد كان واجبا عليها أن تطبخ وتغزل وتنسج وتحيك الملابس وترتقها لزوجها وأولادها.كما كانت تختلف إلى الأسواق لتبيع طيورها وزبدها وما نسجته من أقمشة،كل ذلك دون أن تغفل عن أطفالها الذين يضحون ويصخبون من حولها، أو رضيعها الذي

تتعده بالعناية والارضاع ولما كانت المرأة في مصر القديمة تتزوج في سن مبكرة،فقد كانت ترزق بالأولاد في سن الخامسة عشرة،وتصبح جدة في الثلاثين.وكان المصريين القدامى يعتبرون الأولاد نعمة من نعم الله،ويرحبون بالذرية لأنها تعلي شأنهم،وتعينهم على أداء الأعمال

وكانت امرأة واحدة هي التي تعد عادة زوجة شرعية،وربة للبيت،على أن الرجل كان حرا في أتخاذ محظيات،بقدر ما تسمح به ثروته.وكان من المفهوم أن خادمات المنزل ومغنياته هن ملك يديه.وكانت العلاقة بين الزوج وزوجته تصور في جميع العصور بطريقة تنم عن الاخلاص والوفاء،فهما يقفان الواحد منهما إلى جانب الآخر،أو يجلسان معا على مقعد عريض وتلف المرأة ذراعها في رفق حول زوجها،أو تضع يدها على إحدى كتفيه،أو تتشابك أيديهما معا.ويقف الأولاد في الغالب إلى جانب الوالدين يقبضون على عصا الأب،أو يجلسون القرفصاء على الأرض إلى جانب مقعد الأم.وتساعد الزوجة زوجها في مختلف الشؤون،فهي وأولادها يرقبونه عندما يصيد الطيور،وكانت ترافقه في رحلاته بقوارب الصيد الخفية خلال المستنقعات.وتمتدح نقوش الدولة القديمة الزوجة التي «يبجلها زوجها» ويقول كتاب الحكم القديم الذي ألفه الوزير بتاح حتب أن الرجل يكون حكيما عندما «يؤسس لنفسه بيتا ويجب زوجته».وقد أمدتنا اعترافات أرمل محفوظة في ورقة ليدن البردية،بصورة واضحة للحياة الزوجية.فبعد موت الزوجة المسماة «أنشيري» اعترى الزوج مرض.ويظهر أن أحد الكهنة قال للزوج أن زوجته المتوفاة هي التي سببت له هذا الشقاء.فكتب خطابا أليما إلى روح زوجته «أنشيري»

ووضعه في مقبرتها،على أمل أن يستعطفها ويسترضيها.وهو يقول فيه :«ماذا فعلت بك من سوء حتى أجد نفسي في هذه الحالة السيئة التي أنا فيها الآن ؟لقد كنت زوجتي عندما كنت في سن الشباب،وكنت عندك ولم أتخل عنك ولم أدخل على قلبك أي هم.وعندما كنت أرأس ضباط جيش فرعون وجنود العربات جعلتهم يحضرون ليخرجوا سجدا بين يديك،وقد جلبوا أنواعا وأشكالا من الأشياء الجميلة لكي يضعوها أمامك،ولم أخف شيئا عنك طول حياتك،ولم أفعل بك سوءا ولم أخنك.وعندما مرضت بهذا المرض الذي اعتراك،استحضرت كبير الأطباء،لتصنع لك دواء،وأجاب كل طلب لك،وعندما وجب علي أن أرحل إلى الجنوب في رفقة فرعون،كنت بأفكاري عندك،وقضيت الشهور الثمانية دون أن أكل أو أشرب كما يفعل الناس،وعندما عدت إلى منفيس استأذنت فرعون وحضرت إليك،وبكيتك كثيرا مع أهلي أمام منزلي،واستحضرت ملابس وأقمشة لكي يلفوك فيها ولم أدع شيئا حسنا إلا فعلته لك»

وكانت حالات تعدد الزواج الحقيقية تعتبر استثناء،وقلما نجد زوجتين تحكمان في وقت واحد،بيد أنه توجد مع ذلك أمثة قليلة في العصور المختلفة.فأميني الذي عاش في عصر الدولة الوسطى اتخذ له زوجتين،إحداهما هي (نيت) التي ولدت له ولدين وخمس بنات وابنا واحدا.ولا أدل على أن الأثنتين كانتا تعيشان معا في سلام ومحبة،من الواقعة الغريبة الآتية :فقد سمت السيدة (نبت) ابنتها الثانية (خنوت) على حين ذهبت السيدة (حنوت) في مجاملتها إلى حد أبعد بأن سمت

بناتها الثلاث جميعهن باسم (نبت).وتعرض لنا الحالة نفسها بعد ذلك بزمن،ولو أنها على ما يبدو في طبقة أدنى.فأن أحد لصوص مقابر الملوك كانت له زوجتان : السيدة «حريرع» والسيدة «تانغري» زوجته الأخرى

ومع أن الآثار وما عليها من نقوش لا تدلنا على السن التي كان يتزوج فيها المصريون،إلا أن الأمر لا يمكن حينذاك أن يكون مخالفا لما كان عليه في عصر السيادة الرومانية،عندما كان يتزوج الشبان في سن الخامسة عشرة ببنات في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة.وهذا التبكير في الزواج نجده أيضا دائما بين المصريين الحاليين وخاصة من طبقة الفلاحين

ولا نعلم شيئا عن المراسم والطقوس التي كانت تلزم لعقد زواج قانوني،أو إذا استعملنا التعبير المصري «لكي يؤسس المرء لنفسه بيتا»،ومن المحقق أن الزواج،شأنه في ذلك شأنه في العصور المتأخرة،كان يقوم على عقد كتابي ثابت.ولكن لم يصل إلينا من العصور القديمة أي عقد من هذا النوع.ويرجع تاريخ أقدم عقد زواج مصري وصل إلينا إلى القرن الرابع قبل الميلاد.ويوجد لدينا بالمتحف المصري عقد زواج يرجع عهده إلى عام ٢٣١ ق.م أبرم بين «أمحوتب» و«تاحاتر» هذه ترجمته:

(يقول «أمحوتب» لـ «تاحاتر» لقد اتخذتك زوجة،وللأطفال الذين تلدينهم لي كل ما أملك وما سأحصل عليه.الأطفال الذين تلدينهم لي يكونون أطفالي،ولن يكون في مقدوري أن أسلب منهم أي شيء مطلقا

لأعطيه إلى آخر من أبنائي أو إلى أي شخص في الدنيا.سأعطيك من النبيذ والفضة والزيت ما يكفي لطعامك وشرابك كل عام.مستضمنين طعامك وشرابك الذي سأجريه عليك شهريا وسنويا وسأعطيه إليك أينما أردت،وإذا طردتك أعطيتك خمسين قطعة من الفضة.وإذا اتخذت لك ضرة أعطيتك مائة قطعة من الفضة.ويقول أبي : «تناولي عقد الزواج من يد ابني كي يعمل بكل كلمة فيه،أني موافق على ذلك») وقد شهد على هذا العقد ستة عشر شخصا، ولا ندري إذا كانت عادة «سنة الأكل» التي انتشرت في العصور المتأخرة،–وهي السنة التجريبية الأولى التي يمكن الزوج بعدها أن يلغي الزواج في نظير دفع مبلغ معين من المال – كانت موجودة قبل ذلك أم لا ؟ على أنه توجد عادة أخري غريبة على أفهامنا هي :زواج الشخص بأخته،إذ كانت هذه هي القاعدة المتبعة في عصري البطالمة والرومان في مصر.

ومعظم البطالمة اتخذوا أخواتهم زوجات لهم،وفي عصر الأمبراطور (كومودس) كان ثلثا أهالي مدينة أرسنوى متزوجين أخواتهم.وزواج الشخص من أخته يلوح لنا الآن شيئا غريبا تمجه وتشميز منه التقاليد والآداب العامة،ولكنه كان بالنسبة للمصريين الأقدمين شيئا عاديا طبيعيا يعادل زواج المصريين الحاليين ببنات أعمامهم أو خالاتهم من حيث اعتباره أمرا تتطلبه الطبيعة والعقل قبل كل شيء.وقد اتخذ المصريون القدامى لهو أسوة في الآله أزريس الذي تزوج اخته ايزيس،والآله سيت الذي تزوج أخته نفتيس.وفي مرآة هذا الزواج تنعكس لنا عادة الشعب المتوغلة في القدم

ونحن نجد الزواج بالأخت منتشرا شائعا على الأخص في عائلة الملك،مما يوحي بأن فكرة الأحتفاظ بنقاء الدم الآلهي كانت تلعب على التحقيق دورا في هذا الأمر.ففي الأسرة الثامنة عشرة،كانت أحموسي نفرناري زوجة لأخيها أحموسي،وكانت سيدة تدعى أحموسي زوجة لأخيها تحتمس الأول.وكانت (أرات) زوجة لأخيها تحتمس الرابع وهكذا.وفي نقوش الأشخاص تعرض لنا عبارة «أخته المحبوبة» في نفس المكان الذي ننتظر أن نجد فيه عبارة «زوجته المحبوبة» –ثم هناك عبارات مثل «أختك التي تحتل قلبك وتجلس على مقربة منك» في المأدبة، أو «ظاختك الحبيبة،وهي من تهوى أنت أن تتحدث إليها» ومثل هذه العبارات لا شك أن المقصود منها الزوجة،كما أن هذين البناءين اللذين كانا يرأسان العمل في محاجر الحمامات في عهد الملك «أمنمحعت» الثالث كان مع كل منهما «أخته»،وهنا لا يمكن أن ينصرف الكلام إلا إلى الزوجتين اللتين تبعا زوجيهما إلى هذا الوادي الصحراوي الذي تستعر ناره،ويقوى لهيبه

ولا يمكننا أن نتحقق دائماً مما إذا كان الأمر في مثل هاتيك «الأخوات» يتعلق بأخوات شقيقات حقيقيات.إذ أن كلمة «الأخت» في مصر القديمة قد أصبحت تدل على الحبيبة.

وفي أغنيات الحب المصرية يتخاطب المحبون دائما : «أخي» و«أختي».ولا يوجد مجال للشك في أنه في كثير من الحالات لا تعني «أخته» أكثر من «حبيبته» أو خليلته.ويظهر التسرى على الأخص منتشرا بين الطبقات الدنيا،فمن بين خمس من نساء العمال ورد ذكرهن في أحد

النصوص،ذكر عن أربع منهن أنهن «يعشن مع» هذا وذاك من العمال،على حين أن واحدة فقط هي التي ورد ذكرها على أنها «زوجة لرجلها».

من قصص البردي

(القصص التالية تكاد تكون ترجمة حرفية لورقة وستكار البردية الموجودة بمتحف برلين)

السحرة

كان الملك خوفو جالسا في قاعدة عرشه في يوم من الايام، فأمر أحد رجاله أن يستدعى إليه أبناءه ومستشاريه،لكي يطلب منهم أمراً،فحضر إليه أبناؤه ومستشاروه ووقفوا أمامه،فقال لهم الملك :«هل تعرفون رجلاً يستطيع أن يقص علي قصصاً عن أعمال السحرة» فوقف الأبن الملكي خفرع ةفال : «سأخبر جلالتك بقصة حدثت في أيام جدك نيكا،وقعت عنجما ذهب إلى معبد بتاح بمدينة منف». ثم أخذ يقص عليه ما يلي:

قصة خفرع

كان جلالته يسير إلى معبد بتاح،فخطر له وهو في الطريق أن يمر على منزل المقريء الأكبر أوبأنر مع حاشيته،وعندئذ رأت زوجة أوبأنر غلاماً يقف خلف الملك وكان جميل الشكل فصبا قلبها إليه،وأرسلت خادمها يحمل إليه صندوقاً مليئاً بالملابس هدية منها له،فحضر الغلام إليها مع الخادم وقابلها وقال لها : «ما اجمل الجوسق (الكشك) الذي يوجد في حديقتكم،ولشد ما ترغب نفسي في أن تلجأ إليه ونستمتع فيه بما نود ونهوى.فوافقته الزوجة على ما أراد وأرسلت خادمها إلى البستاني

يقول له أن يعد الجوسق الذي في الحديقة ويهيئه بكل ما يوفر فيه أسباب الراحة.ثم وافاها الغلام فيه،وظلت معه حتى مالت الشمس إلى المغيب، وحينما ارخى الليل سدوله قام الغلام ليستحم في البحيرة التي تتوسط الحديقة.وكان البستاني يراقبهما،ففكر في الأمر إلى أن استقر عزمه على أن يخبر سيده بما حدث،فلما كان اليوم التالي ذهب البستاني إلى أوبأنر وأخبره بكل ما يعلمه،فأمر أوبأنر بأن يحضروا إليه صندوقاً من الأبنوس والذهب،ثم شكل تمساحاً من الشمع وجعله مسحوراً وأعطاه للبستاني،وقال له عند ما يحضر الغلام ليستحم في بحيرتي كما هي عادته في كل يوم عليك أن تطلق هذا التمساح وراءه فأخذ البستاني التمساح وذهب.

وفي اليوم التالي أرسلت الزوجة إلى البستاني،تأمر بأن يهيء لها الجوسق لكي تمضي فيه وقتاً.فأعد الجوسق وهييء بكل ما هو حسن وجميل وحضرت الزوجة وأمضت فيه مع غلامها وقتاً وحينما أقبل المساء ذهب الغلام ليستحم على مألوف عادته فألقى البستاني في الماء التمساح الشمع فأنقلب تمساحاً كبيراً طوله سبع أذرع وأمسك بالغلام.

وكان أوبأنر في هذا الوقت في صحبة الملك نبكا،وقضى معه سبعة أيام وعندما انقضى هذا الوقت قال أوبأنر للملك :هل يطيب لمولاي أن يشاهد هذه العجيبة التي حدثت في عصركم لأحد الغلمان،فوافق الملك وذهب معه إلى الحديقة وصاح الزوج منادياً التمساح أن يحضر الغلام،فخرج التمساح من البحيرة ومعه الغلام،فقال الزوج للملك :أنظر إلى هذا التمساح أنه رهين اشارتي يفعل كل ما آمره

به فقال جلالته : «مر التمساح بأن يعود إلى ما كان عليه» فأمسك الزوج بالتمساح فاستحال في يده إلى قطعة من الشمع وعندئذ أخبر الزوج الملك بكل ما حدث في بيته بين الغلام وزوجته،فأمر الملك التمساح بأن يذهب ويأخذ فريسته،وعندئذ قفز التمساح إلى البحيرة ومعه الغلام،واختفى به ولم يدر أحد عنه شيئاً بعد ذلك. ثم أمر الملك نبكا المبارك بأن يحضروا إليه الزوجة إلى القسم الشمالي من الحريم،وحرقها بالنار وألقي برمادها في النهر.فهذه هي العجيبة التي حدثت في عصر سلفك.الملك نبكا من أعمال المقريء الأكبر أوبأنر.

عندئذ قال ملك الوجهين القبلي والبحري خوفو :فليقدم للملك نبكا المبارك ألف رغيف ومائة اناء من الجعة ونور واناءان من البخور،وليقدم رغيف واناء من الجعة، واناء من البخور وقطعة من اللحم للمقريء الأكبر اوبأنر،لما عرفته من آيات علمه.وقد نفذ كل ما أمر به الملك.

وبعد أن انتهى خفرع من قصته قام بفرع وقص على الملك ما يلي:

قصة بفرع

سأخبر جلالتك بعجيبة حدثت في عصر أبيك ينفر والمبارك من أعمال المقريء الأكبر زازام عنخ،فقد شعر الملك سنفرو وفي يوم من الأيام بأنه متعب،وأن صدره يضيق بكل شيء،فأخذ يجوس في قصره باحثاً عما يفرج كربه ويشرح صدره،ولكن محالته ذهبت عبثاً،وعندئذ أمر بأن بستقدموا إليه المقريء الأعظم وكاتب أوراق البردي المدعو

زازام عنغ،فأحضروه إليه على عجل،!فقال له الملك :لقد بحثت في قصري عما يفرج كربي فلم أجد،فقال له المقريء فلتأمر جلالتك بأن يعد لك قارب يضم حسان حريم قصرك، وتركب في هذا القارب معهن وتسير فوق بحيرة القصر،فإن قلب جلالتك سوف ينسرح بمرآهن وهن يجدفن،كما سينشرح بمرآى الطيور وهي ترفرف على سطح البحيرة، بمناظر الحضرة التي تضفي على الشاطيء جمالاً وسحراً، وسأذهب أنا أيضاً معك، ولتحضر إلى عشرين مجذافا من الابنوس محلاة بالذهب، أطرافها من الخشب الرقيق المغطى بالذهب،ولتحضر إلى عشرين فتاة كلهن أبكار ناهدات،ذوات حسن فتان وجمال خلاب، ولتحضر إلى عشرين شبكة،ولتعط هذه الشباك للغانيات يتخذن منها أردية لهم.

وقد أعد كل شيء طبقاً لرغبات جلالته.وساروا بقاربهم يتهادون وسر قلب جلالته بمنظرهن وهن يحذفن.ولكن أحداهن وهي تدير الدفة سقطت من شعرها حلية من الملاخيت،واختفت في الماء فتوقفت عن الغناء وعن التجذيف،وتوقفت رفيقاتها أيضاً ولم يعدن يحدفن.وعندئذ قال جلالته :لماذا لا تجفن؟ فأجبن وكيف نجدف ومراقبة الدفة الصغيرة توقفت عن عملها، فسألها: لماذا توقفت؟ فأجابت: لان حليتي المصنوعة من الملاخيت الجديد قد سقطت في الماء.فقال لها لا تبتئسي ولا تحزني فسأعوضك خيراً عنها،ولكنها أجابت أني لا أريد إلا حليتي،ولا أريد بدلاً عنها،فقال لملك: على بزازام عنخ المقريء الأكبر،ولتسرعوا في احضاره إلي،وعندما أحضروه قال له الملك: يا زازارم عنخ يا أخي لقد اتبعت نصيحتك وبدأ الكرب ينحسر عن

قلبي،بمنظر الجيلات الفاتنات وهن يجدفن،ولكن سقطت حلية من الملاخيت من إحدي الصغيرات،وغاصت في الماء فتوقفت صاحبتها عن الغناء والتجديف،فأفسدت بذلك عمل رفيقاتها،ولقد سألتها عن السبب في توقفها،فقالت أنه بسبب حليتها التي فقدت،فقلت لها إني سأعوضك عنها ولكنها أصرت على أنها تريد حليتها التي فقدت لتعيدها إلى مكانها.فلما سمع زازام عنخ ذلك أخذ يتلو أقوالا سحرية،فأنشقت المياه وظهرت الحلية مستقرة في قاع البحيرة،فأخذها وأعطاها لصاحبتها،وأعاد المياه إلى ما كان عليه،وقضى جلالته يوماً سعيداً مع جميع بيته الملكي،وأجزا العطاء للمقرىء الأكبر زازام عنخ.والآن أنظر هذه العجيبة التي حدثت في أيام والدك ملك الوجهين سنفرو،من أعمال المقرىء الأعظم وكاتب السجلات زازام عنخ.

وعند ذلك قال ملك الوجه القبلي والوجه البحري خوفو المبارك : «فليقدم قربان مكون من ألف كعكة ومائة أناء نت الجعة ونور واناءان من البخور لملك الوجهين سنفرو المبارك،وإناء من البخور للمقرىء الأكبر كاتب السجلات زازام عنخ لأني قد شهدت أيات علمه». وقد نفذ كل ما أمر به جلالته.

قصة حرددف

وبعدئذ تقدم الأبن الملكي حرددف،وقال: استمعت حتى الآن يا مولاي لاقاصيص حدثت في أيام أسلافك،ولا يدري أحد مبلغ ما فيها من صحة وصواب،ولكني سأرى جلالتك رجلا يعيش في نفس عصرك

فابتدره الملك قائلاً :ومن عساه يكون يا حرددف ؟

فأجاب الأبن الملكي الأكبر حرددف :هو رجل يدعى (ددي) يقطن في مدينة دد سنفرو وقد بلغ من العمر عتيا، وتخطى العشرة بعد المائة،وهو يأكل خمسمائة رغيف من الخبز وفخذ عجل،ويعب مائة إناء من الجعة عبا حتى اليوم.ولقد أوتى مقدرة عجيبة،فهو يستطيع أن يعيد الرأس الذي فصل إلى موضعه الذي فصل منه،وهو يستطيع أن يجعل الأسد يتبعه طبعا مختارا كحيوان أليف،وهو محيط علما بجميع الرسوم الخاصة بهيكل الاله تحوتي،واني لأعلم أن جلالة ملك القطرين القبلي والبحيري خوفو المبارك شديد الرغبة في البحث عن رسوم هسكل الاله تحوتي،حتى يستطيع أن يسير على هديها في بناء هرمه

فقال الملك : «أنت نفسك يا بني حرددف عليك أن تحضره إلي»

ثم أعدت السفن للأبن الملكي حرددف،وسار بها إلى مدينة دد سنفرو،وعندما وصلت السفن وألقت مراسيها،نزل الأمير وجلس في محفة من الأبنوس،ذات أذرع صنعت من خشب الأرز المغطى بالذهب،وعندما اقتربوا من ددي،أنزلوا المحفة وقام الأمير ليحيى ددي،وكان ددي مستلقيا على سرير من قحوف النخل على مقربة من باب منزله،وقد قام على رأسه خادم يدلك رأسه وآخر يدلك قدميه.وقال الأبن الملكي حرددف : «مرحي مرحي أني أراك رجلا قد زاده العمر المديد وقارا ورهبة،وما حياتنا إلا رحلة طويلة طولها هو طول الأجل،ونهايتها تؤدي بنا إلى عالم آخر،عالم التحنيط وعالم الدفن،ولكنه

عالم الخلود والبقاء والأبدية.ولكن ها أنا أجدك يا ددي مستقليا، تستمتع بدفء الشمس الذيذ،صحيح الجسم معافى،وها أنا أقدم التحية للسن الوقور،لقد أتيت من بعيد لكي أستدعيك،مزودا برسالة من أبي خوفو المبارك،وإني أعدك بأنك ستأكل من خير ما يعطيك الملك،ومن الطعام الذي يهيه لاتباعه المخلصين،وسوف تبقى لديه في عيش رغيد وحياة ناعمة،حتى يقضي القجر أمرا كان مفعولا.وعندئذ تلتحق بآبائك وأسلافك في عالم الموتى.فأجاب ددى :سلاما ثم سلاما يا حرددف ظظنيا ابن الملك يا من يحبه أبوه،فلتكن مباركا عند أبيك خوفو،ولتكن مقدما بين الشيوخ،ولتفز روحك ذد أعدائك،ولتستبن روحك الطريق السوي (سواء السبيل)، إلى باب الذي يكسو العريان ويطعم الجوعان، هذه هي تحيتي ودعواتي للأبن الملكي

ثم مد الأمير حرددف يده إلى ددي،وأعانه على القيام وسار معه إلى الشاطىء،وقد اتكأ ددي على ذراع الأمير،ثم قال ددي فليسمح لي الأمير يسفينة خاصة،وأحضر فيها أبنائي وكتبي.فأعدوا له سفينتين مزودتين ببحارتهما ونزل ددي إلى سفينة الأمير.وعندما وصلوا إلى القصر تقدم الأمير حرددف،ودخل على الملك وقال له : مولاي الملك لك الحياة والسعادة والصحة،لقد أحضرت ددي.فأجاب الملك :فلتحضروه إلي،وليمثل بين يدي في الحال.وذهب جلالته إلى قاعة الأعمدة في القصر،حيث وافاه ددي وأدخل عليه،فقال الملك :كيف أني يا ددي لم أرك حتى الآن.فأجاب ددي :أن من يرسل في طلبه يحضر،لقد استدعاني مولاي وها قد حضرت.فسأله الملك : وهل هو صحيح ما يشاع عنك

من أنك تستطيع أن تعيد الرأس المقطوع إلى مكانه الذي قطع منه.فقال ددي :أجل يا مولاي.وعندئذ أمر الملك بأن يحضروا إليه أسيرا من السجن،لكي ينفذ فيه العقاب،ولكن ددي قال :لست أريد رجلا يا مولاي إذ يكفي أن تحضروا إلى حيوانا.ثم أحضرت أوزة إليه فقطع رأسها ووضعت الأوزة في الجانب الغربي من القاعة وبقي رأها في الجانب الشرقي من القعة،وعندئذ أخذ يتلو ددي الرقى والتعاويذ السحرية، فانتصبت الأورزة كما انتصب الرأس،وأخذ كل منهما يسير نحو صاحبه حتى ألتقيا فقامت الأوزة منتصبة وهي تصيح، ثم أحضورا إليه بطة أخرى ففعل بها كما فعل من قبل،فأمر جلالته أن يحضروا له ثورا قطعوا رأسه وألقوا به على الأرض،لكن ددي أخذ يقرأ رقياته وسحره،فأنتصب الثور وراءه حيا سليما يسير خلفه ومقوده يعبط إلى الأرض ..

وقال الملك : وهل هو صحيح ما يشاع عنك من أنك تعلم عدد الرسوم الخاصة بهيكل تحوتي ؟ فأجاب ددي :أستميحك المعذرة يا مولاي فإني لا أعرف عددها،ولكني أعرف مكانها.فقال جلالته :إذن خبرني أين هي.فأجاب ددي :يوجد صندوق من الحجر في غرفة الرسوم في مدينة هليوبوليس،فهذه الرسوم التي تسأل عنها في هذا الصندوق يا مولاي.ثم بعد فترة صمت قصيؤة استدرك ددي قائلا :ولكني لست أنا يا مولاي من سيحضرها.فقال الملك :إذن فمن الذي سيحضرها إلي ؟ فقال ددي :هو أكبر الأطفال الثلاثة الذين ما زالوا في بطن روددت،أنه هو يا مولا الذي سيحضرها لك.فقال الملك.ولكني أود أن أعلم من روددت هذه ؟فقال ددي : هي زوجة كاهن الإله رع.لقد حملت من الإله

رع بثلاثة أولاد،ولقد أخبرها الإله بأنهم سيتولون هذه المهمة العظيمة في كل البلاد (أي أنهم سيصبحون ملوكا).وأن أكبرهم سيصبح كاهنا أعم في هليوبوليس.وعندئذ طاف بقلب الملك طائف من الحزن والكآبة.فقال ددي :ماذا أرى يا مولاي أمن أجل الأطفال الثلاثة نحزن، أذن فأني أقول لك أن أبنك سيحكم بعدك،وسيحكم بعده أبنه وبعد هذا سيكون أول هؤلاء الثلاثة فقال الملك :ولكن خبرني متى تلد روددت ؟فأجاب ددي :أنها ستلد في اليوم الخامس عشر من الشهر الأول من فصل الشتاء،فقال جلالته :عندما تقطع شواطىء قناة السمتين،فإني سأذهب لرؤية معبد رع،فقال ددي :إذن سأجعل غور الماء هناك أربع أذرع، ولما عاد جلالته إلى القصر قال :فليسكن ددي مع ولدي الأمير حرددف في بيته،وليعط له كل يوم ألف رغيف ومائة كأس خمير ونور ومائة حزمة بصل.

وكان كل ما أمر به جلالته.

وحدث أنه في أحد الأيام أحست رددت آلام الحمل،فقال الإله رع لإزيس ونفتيس ومسخنت وحكت وخنوم :هيا اذهبن جميعاً لتخليص ثلاثة الأولاد من رددت عند ولادتها لهم،لأنهم سيتولون هذا المركز العظيم،فيحكمون البلاد جميعها ويبنون معابدكن ويملأونها بالعطايا، ويقدمون لكل القرابين ويكثرون من الضحايا.

ذهب أولئك الآلهة فيي شكل راقصات، وكان خنوم معهن في زي حمال، فاقترين جميعا من بيت أوسر رع،فوجدته واقفا عند باب داره،

فرقصن أمامه وعزفن على آلاتهن ولكنه قال لهن :سيداتي أن في هذا البيت امرأة تتوجع من آلام الحمل فقلن له :دعنا نراها لأننا نعرف كيف نساعدها،أجابهن تفضلن إذن وأدخلن إلى رددت،فأغلقن علها وعليهن الباب.

عندئذ وقفت أزيس أمامها، ووقفت نفتيس وراءها ولأخذت حكت تساعدها.فقالت أزيس :أيها المولود المسمى أوسر كاف لا تتعب أمك.وسرعان ما نزل الطفل على يديها ملئيا قويا،كأبن سنة عظامه قوية جميل يضيء شعره كالذهب.فغلسته وجهزته ووضعته في قطعة من الكنان واقتربت منه مسخنت قائلة :هذا ملك سيحكم على كل البلاد. وتقدم خنوم فأعطاه قوة في أعضائه،وعندئذ وقفت ازيس أمام الأم، ونفتيس ورائها وساعدتها حكت،وقالت ازيس: أيها الطفل المسمى سحورع، ولا تبطيء في بطن أمك،وسرعان ما نزل الطفل على يديها،كأنه ابن سنة عظامه قوية جميل الأعضاء ذهبي الشعر،فغسلته وجهزته ووضعته في قطعة من الكتان. واقتربت منه مسخنت قائلة :هذا ملك سيحكم على كل البلاد،وتقدم خنوم فأعطاه قوة في أعضائه،وعندئذ وقفت ازيس أمام الأوم ونفتيس وراءها وساعدتها حكت،وقالت ازيس :أيها الطفل المسمى كاكو،لا تبق في ظلام بطن أمك،وسرعان ما نزل الطفل كأنه ابن سنة. عظامه قوية جميل الأعظاء ذهبي الشعر غسلته ووضعته في قطعة من الكتان.واقتربت منه مسخنت قائلة :هذا ملك سيحكم على كل البلاد،وتقدم خنوم فأعطاه قوة في أعضائه.

وعندئذ خرجت الآلهة بعد أن ولدت رددت ثلاثة أطفالها،وقلن

لأوسر رع : اغتبط يا أوسر رع،فقد ولد لك ثلاثة أبناء.أجابهن :سيداتي وما الذي في وسعي أن أقدمه إليكن،أنظرن ليس لدى غير هذا القدر من الشعير،فليحمله حمالكن مكافأة لكن على عملكن،ولتعملن منه خميرا.فأخذ خنوم قدر الشعير وخرجوا جميعا إلى الطريق.فقالت ازيس لهن :ما معنى حضورنا للمساعدة في أثناء الوضع،دون أن نقوم بمعجزة لهؤلاء الأطفال الثلاثة،تكون لهم بشرى خير وبداية سعادة

فصنعت الآلهة ثلاثة تيجان فاخرة من التي اعتاد لبسها فراعنة مصر، وأخفوها في الشعير،ثم أهاجوا الريح،وأناروها بعاصفة تبعها سقوط أمطار،وعادوا بعد ذلك إلى بيت الكاهن،وقالوا : «نرجو أن تحتفظ لنا بهذا الشعير في غرفة مقفلة إلى أن تهدأ العاصفة،وسنعود لأخذه كي نواصل رحلتنا شمالا» ووضعوا الشعير في غرفة مقفلة وختموها وذهبوا لشأنهم

وأمضت رددت أربعة عشر يوما،ثم ظهرت نفسها وقالت لخادمتها :هل رتبت المنزل ؟ أجابتها الخادمة :كل شيء معد،ولكن شعير الخمير لم يحضر بعد،فسألها :ولم لم تحضري شعير الحمير ؟ أجابتها الخادمة :لقد كان الشعير معدا،ولكن سيدي أعطاء للراقصات،ومن وضعته في غرفة مقفلة وختمن عليه.قالت رددت :أنزلي واحضري بعضه،وعند ما يأتي أوسر رع سأجعله يعطيهن بدله ذهب الخادمة وفتحت الغربة، فسمعت حديثا وغناء وموسيقى ورقصا وترتيلا،وكل ما يعمل في قصور الملوك.فأسرعت إلى سيدتها وأخبرتها بما سمعت،فجاءت معها ودخلت تجوس أنحاء الغرفة،وبحثت عن مبعث هذه الأصوات الموسيقية

العذبة،وعبثا حاولت أن تهتدي إلى مصدر الصوت،ولكن شغفها بتلك النغمات جعلها تواصل البحث، فوضعت أذنها على كيس الشعير، وأنصتت فإذا بهذه الأصوات منبعثة منه،فأخذت الكيس ووضعته في داخل صندوق وأغلقته عليه اغلاقا محكما،وعند عودة زوجها أوسر رع أبرته بما حدث،ففرح فرحا عظيما،وفرحت معه زوجته وقضيا يوما سعيدا.

بعد ذلك بأيام حدث أن رددت غضبت على خادمتها فضربتها بالسوط،فقالت الخادمة لمن كان في الدار :هل يفعل بي أنا هذا الفعل وأضرب وأهان،لقد ولدت ثلاثة ملوك وسأذهب وأخبر جلالة الملك خوفو المبارك بهذا الخبر، وخرجت غاضبة من المنزل تضمر السوء لسيدتها،وتحدثها نفسها بالشر.وتوجهت إلى منزل شقيقها الأكبر،فقابلته وهو يحزم عيدان كتانه على الأرض،فقال لها من أين أتيت أيتها الطفلة، فصارحته بنبتها نحو الأطفال الثلاثة،وما لحقها من أهانة وعذاب،وبما صممت على عمله فغضب شقيقها منها وانتهرها قائلا : «كيف تجرئين على هذا الغدر، وتأتين إلي بهذا النبأ وبما سولته لك نفسك الشريرة ! أني لا أسمح بذلك أبدا وإياك وإذاعة الخبر،ثم أوثقها بحبل من الكتان وأوسعها ضربا.

وحدث بعد ذلك أن ذهبت الفتاة إلى شاطىء النهر لتملأ الجرة بالماء،فقابلها تمساح هائل انقض عليها وابتلعها.

ذهب أخوها ليخبر رددت بما حدث للفتاة،فوجدها جالسة ورأسها على كبتيها،وقلبها حزين جدا فقال: لم أنت مكتئبة هكذا يا سيدتي ؟

أجابته :بسبب تلك الفاجرة التي كانت في المنزل،أنظر لقد خرجت تقول سأذهب وأبيح أسرارك،وأقول كل شيء.فأحني الرجل رأسه وقال لها: سيدتي لقد جاءت تشكو إلى فضربتها ضربة شديدة فجرت إلى النهر واختطفها تمساح فتنفست السيدة الصعداء لهذا النبأ،وسرى عنها خوف إفشاء السر إلى مسامع الملك خوفو.

الخائنة في القصص المصري القديم

التمساح المسحور

كان جلالة الملك «نبكا» يسير إلى معبد بتاح،فخطر له وهو في الطريق أن يمر على منزل المقرىء الأكبر «أوبأنر» مع حاشيته،وعندئذ رأت زوجة «أوبانر» غلاماًً يقف خلف الملك،وكان جميل الشكل..فصبا قلبها إليه،وأرسلت خادمها يحمل إليه صندوقاً مليئاً بالملابس هدية منها له،فحضر الغلام إليها مع الخادم وقابلها وقال لها : «ما اجمل الجوسق «الكشك» الذي يوجد في حديقتكم،ولشد ما ترغب نفسي في أن تلجأ إليه ونستمتع فيه بما نود ونهوى»...فوافقته الزوجة على ما أراد وأرسلت خادمها إلى البستاني يقول له أن يعد الجوسق الذي في الحديقة ويزويده بكل ما يوفر فيه أسباب الراحة..ثم وافاها الغلام فيه،وظلت معه حتى مالت الشمس إلى المغيب،

وحينما ارخى الليل سدوله،قام الغلام ليستحم في البحيرة التي تتوسط الحديقة.وكان البستاني يراقبهما،ففكر في الأمر إلى أن استقر عزمه على أن يخبر سيده بما حدث،فلما كان اليوم التالي ذهب البستاني إلى «أوبأنر» وأخبره بكل ما يعلمه،فأمر «أوبأنر» بأن يحضروا إليه صندوقاً من الأبنوس والذهب،ثم صنع تمساحاً من الشمع وجعله مسحوراً وأعطاه للبستاني،وقال له :«عند ما يحضر الغلام ليستحم في بحيرتي كما هي عادته في كل يوم،عليك أن تطلق هذا التمساح وراءه»

فأخذ البستاني التمساح وذهب..

وفي اليوم التالي أرسلت الزوجة إلى البستاني،تأمر بأن يهيء لها الجوسق لكي تمضي فيه وقتاً.. فأعد الجوسق وهيىء بكل ما هو حسن وجميل وحضرت الزوجة وأمضت فيه مع غلامها وقتاً، وحينما أقبل المساء ذهب الغلام ليستحم على مألوف عادته،فألقى البستاني في الماء تمساح الشمع فأنقلب تمساحاً كبيراً طوله سبعة أذرع وأمسك بالغلام، وكان «أوبأنر» في هذا الوقت في صحبة الملك «نبكا»،وقضى معه سبعة أيام وعندما انقضى هذا الوقت قال «أوبأنر»:«هل يطيب لمولاي أن يشاهد هذه العجيبة التي حدثت في عصركم لأحد الغلمان»،فوافق الملك وذهب معه إلى الحديقة،وصاح الزوج منادياً التمساح أن يحضر الغلام،فخرج التمساح من البحيرة ومعه الغلام،فقال الزوج للملك :«أنظر إلى هذا التتمساح أنه رهين اشارتي يفعل كل ما آمره به.» فقال جلالته : «مر التمساح بأن يعود إلى ما كان عليه» فأمسك الزوج بالتمساح فاستحال في يده إلى قطعة من الشمع،وعندئذ أخبر الزوج الملك بكل ما حدث في بيته بين الغلام وبين زوجته..فأمر الملك التمساح بأن يذهب ويأخذ فريسته،وعندئذ قفز التمساح إلى البحيرة ومعه الغلام،واختفى به ولم يدر أحد عنه شيئاً بعد ذلك. ثم أمر الملك «نبكا» بأن يحضروا إليه الزوجة إلى القسم الشمالي من الحريم،وحرقها بالنار وألقي برمادها في النهر!

الاخوان.

يحكى أنه كان اخوان من أم واحدة وأب واحد،اسم الأكبر «انوبيس» واسم الأصغر «باتا»..وكان لأنوبيس بيت وكانت له زوجة،أما أخوه الأصغر فكان يعيش معه كابنه،وكان هو الذي يصنع الملابس له،ويرعى ماشيته في الحقول،ويقوم بالحرث والحصاد وبسائر أعمال الحقل.. إذ كان أخوه الأصغر فلاحاً بارعاً ليس له نظير في البلاد كلها،وكأنما قوة الهية قد حلت في جسده!

ومرت أيام كثيرة كان الأخ الصغير خلالها يرعى ماشيته كعادته في كل يوم،ويعود إلى منزله كل مساء يحمل سائر أعشاب الحقل وكذلك اللبن، ويضعها أمام أخيه الأكبر الجالس مع زوجته.. ثم يشرب ويأكل ويذهب لينام في الحظيرة،ساهرا على حراسة الماشية.

وعندما ينبثق نور الفجر ليعلن صبحاً جديداً،كان يعد أكلاً مطبوخاً ويضعه أمام أخية الأكير،ويسوق ماشيته ليرعاها في الحقل.وكان يمشي خلف ماشيته،وكانت تقول له : «ان العشب جيد في هذا المكان أو ذاك».وكان يستمع إلى كل ما تقوله ويأخذها إلى المكان الذي يوجد فيه العشب الطيب الذي تبتغيه،ومن ثم كانت ماشيته تسمن وتتوالد بكثرة ولما حل فصل الحرث قال له اخوه الأكبر: «أعد زوج الثيران للحرث،فقد ظهرت الأرض –أي أن مياه الفيضان قد انحسرت عنها – وآن أوان الحرث،واحضر معك البذور إلى الحقل،لأننا سنقوم بالحرث بعزيمة منذ الصباح الباكر» هكذا قال له.. ولقد قام الأصغر بتنفيذ كل

ما طلب أخوه الأكبر منه أن يعمله..

وعندما أصبح الصباح هبا إلى الحقل،واشتغلا بالحرث بصدق وعزيمة،وابتهج قلباهما بالعمل وهما يبدآن أعمال السنة الزراعية

وبعد أن مرت أيام كثيرة،وهما في الحقب،احتاجا بذور.. فأرسل الأخ الأكبر اخاه الأصغر،وقال له : «اذهب وأحضر لنا بذوراً من القرية» فذهب الأخ الأصغر ووجد زوجة اخيه الأكبر جالسة تمشط شعرها،فقال لها : «قومي وأعطني بذوراً لأخذها إلى الحقل،لأن أخي الأكبر ينتظرني فلا تبطئي»،فأجابته : «أذهب أنت وأفتح المخزن وخذ منه ما تشاء،حتى لا أترك تصفيف شعري قبل أن يتم».

فذهب الغلام إلى حظيرته وأخذ وعاء كبيراً ليأخذ فيه كمية كبيرة،وحمل الشعير والقمح وخرج بهما،فقالت له زوجة أخيه : «ما مقدار ما تحمله على كتفك ؟» فأجابها : «أحمل ثلاثة أكياس من القمح وكيسين من الشعير فيكون مجموع ما أحمله على كتفي خمسة أكياس»، وهكذا قال لها،فقالت له: «إذن فأنت شديد القوة، وأني أراك تشتد وتقوى في كل يوم»، وتاقت نفسها إليه واشتهته،فقامت وأمسكت به وقال: «تعال نلهو ونعبث ونضطجع،وسيكون في ذلك فائدة لك،لأني سأصنع لك ملابس جميلة!»

عندئذ ثار الغلام كما يثور الفهد لذلك الأمر البذىء الذي عرضته عليه،واستولى عليها الخوف حين قال لها : «أنظري!..أك بالنسبة إلي في مقام والدتي،وزوجك في مقام أبي،لأنه كأخ أكبر قد رباني وأعالني،فما

هذا الأثم المنكر الذي تتحدثين عنه ؟لا تعيدي هذا القول مرة أخرى، وأني من جانبي سوف لا أخبر أحد به،ولن تخرج كلمة عنه من فمي لأي إنسان» ورفع حمله وذهب إلى الحقل حيث عمل مع اخيه الأكبر بصدق وعزيمة..

وعندما أقبل المساء انصرف الأخ الأكبر قاصدا منزله،وأخذ الأخ الأصغر يرعى ماشيته،ويحمل سائر أعشاب الحقل،ويسوق ماشيته أمامه لكي يدعها تنام في حظيرتها في القرية

أما زوجة أخيه الأكبر،فقد استولى عليها الخوف والهلع لما قالته،فأخذت دهنا وتظاهرت بأنها ضربت ضرباً شديداً وأهينت،وقد عقدت العزم على أن تقول لزوجها أن أخاه الأصغر قد ضربها وأهانها، فلما حضر زوجها في المساء إلى منزله كما لو في عادته،وجد زوجته نائمة كما لو كانت مريضة،فلم تصب ماء على يديه كعادتها،ووجد منزله غارقاً في الظلام لم تضيء فيه نوراً عند عودته..بل كانت ترقد وتتقيأ.فقال لها زوجها : «هل كلمك أحد ؟».فقالت له : «لم يكلمني أحد سوى أخيك الأصغر،فهو عندما حضر ليأخذ البذور وجدني وحدي فقال لي :

تعالي نلهو ونعبث ونضطجع.. هكذا قال لي، ولكني لم أطاوعه ولم أهتم بأمره،بل قلت له ياللعار،ألست في مقام أمك،وأليس أخوك الأكبر في مقام أبيك،وعندئذ اعتراه الخوف فضربني حتى لا أخبرك بما حدث،فإذا أنت تركته يعيش بعد ذلك فإني سوف انتحر،لأنه عندما يعود

في المساء ويسمعني أفضي إليك بهذه القصة السيئة سيحاول تبرئة نفسه»

عندئذ ثار الأخ الأكبر كما يثور الفهد،وأخذ يشحذ مديته وحملها في يده،ووقف خلف باب الحظيرة ليقتل أخاه الأصغر عندما يعود في المساء ليدخل ماشيته في الحظيرة

وعند الغروب حمل الأخ الأصغر سائر أعشاب الحقل كعادته في كل يوم، وأقبل ودخلت البقرة الأولى إلى الحظيرة..ولكنها لم تلبث إن قالت لراعيها : «احذر! فإن أخاك الأكبر يرابط لك وبيده سكينة لكي يقتلك،فأهرب من أمامه». وقد فهم ما قالته البقرة الأولى..فلما دخلت البقرة الثانية قالت ما قالته الأولى،فنظر من تحت باب الحظيرة فرأى قدمي أخيه الأكبر الذي كان يقف خلف الباب وبيده السكين.فأنزل حمله على الأرض وأخذ يعدو مسرعا، يتبعه أخوه الأكبر شاهرا مديته. عندئذ دعا الأخ الأصغر الإله «رع حور اختي» قائلاً: «يا إلهي الطيب !انك أنت الذي تحكم بين المسيء وصاحب العمل الصالح». واستمع «رع» لدعائه ففجر بينهما نهراً يموج بالتماسيح،وبذلك وقف احدهما على شاطيء ووقف الآخر على الشاطيء الثاني،وضرب الأخ الأكبر يدا على يد مرتين لأنه لم يقتل أخاه!

بيد أن الأخ الأصغر نادى عليه من الشاطيء الآخر قائلا : «ابق حتى الصباح حين تبرغ الشمس فنحكتم إليها،فهي ستنصف صاحب الحق من المسيء، لأني سوف لا أبقى معك،ولا أحل في مكان تحل

أنت فيه..وسأذهب إلى وادي الأرز

وعندما لاح نور الفجر معلناً قدوم يوم جديد،أشرق «رع حور اختي» ورآى كل واحد من الأخوين أخاه الآخر

وأفصح له عن كل ما حدث بينه وبين زوجته،وأقسم برع حور أختي قائلا : «ولكن والأسفاه! أنك تريد قتلي غدراً،وشهرت مديتك بسبب كلمة من امرأة قذرة دنيئة»

ثم استل سكين بوص وقطع عضوه التناسلي ورماه في الماء فابتلعه السمك، وأغمى عليه وأصبح في حالة سيئة.. فحزن لذلك الأخ الأكبر حزناً شديداً ووقف يبكي بكاء مرا عليه،غير أنه لم يستطع عبور النهر ليصل إلى الشاطىء الآخر حيث يقف أخوه بسبب التماسيح!

ثم ذهب الأخ الأصغر إلى وادي الأرز،وعاد الأخ الأكبر إلى منزله ويده فوق رأسه –علامة على الحزن والأسى –وغطى نفسه بالطين، وعندما بلغ منزله قتل زوجته وألقى بجثتها إلى الكلاب، وجلس ينتحب على أخيه.

أشباح الفراعنة

لعل ألذ الأوقات التي قضيتها في الوجه القبلي عندما كنت كبيراً لمفتشي مصلحة الآثار هناك تلك الأوقات التي كنت أجلس فيها مستمعاً إلى الأقاصيص الشائقة التي يرويها أهالي «لو قصر» وما حولها عن المعابد والجهات الأثرية.فهذه الأقاصيص الطريفة كانت تطربني وتزيد في رغبتي إلى الاستماع،لا عن حب في الرواية أو الاستطلاع فحسب،وإنما لأني كنت أجد فيها أمثلة حية زادتني يقيناً في أن المصريين الحاليين قد حافظوا مع مضي هذه الأزمان الطويلة على ذكرى الآلهة الأقدمين وما كان يقام لهم من مهرجانات دينية.وهي ذكرى وإن كانت غير دقيقة من حيث التفصيل إلا أنها تكفي لتعود بذاكرتنا إلى تلك الأزمنة الغابرة من تاريخ الفراعنة حيث كان يشترك الشعب بكامل هيئته في الاحتفال بتكريم الاله والقيام بالطقوس الدينية اللازمة لإقامة مهرجانه السنوي.

يعلم كل من زار الكرنك أنه بجوار المعبد الرئيسي أطلال بحيرة ما زالت مغمورة بالماء.هذه البحيرة كانت في قديم الزمن مقدسة.فكيف لا وقد كانت مسرحا لأهم احتفال ديني،احتفال مدينة طيبة على بكرة أبيها بعيد الاله آمون السنوي حيث كانت تخرج السفن المقدسة من المعبد وهي تحمل تماثيل الاله المقدسة ورموزه الخفية فتجري في مياه هذه البحيرة المقدسة يحيط بها كهنة الاله وحملة المشاعل والبخور،وهم

ينشدون أغانيهم الدينية ويرتلون أدعيتهم بصوت تزيده قوة الدين ورهبته مهابة ووقاراً

هذا المهرجان الذي كان يرأسه الملك ويشترك في إقامته الشعب كان عظيما فخما له أبهة الأحتفالات المقدسة الكبيرة ،وكان يستغرق النهار كله وجزءاً من الليل،وعندما تقارب الحفلة الأنتهاء،كانت تماثيل الاله إلى مهبدها وتترك الفن مربوطة إلى شاطىء البحيرة حيث تظل باقية في مكانها إلى السنة التالية

هذا هو مهرجان الاله الأكبر آمون إله طيبة عندما كانت مدينة «لوقصر» الخالية مهداً لأقدم حضارة عظيمة رآها التاريخ أي عندما كانت «لوقصر» قاعدة لذلك الملك الزاهر الذي تألق نجمه فجعله من مصر كعبة يحج إليها كل من رغبت نفسه في الأغتراف من بحار العلم ومناهل الحضارة.أما الآن فماذا بقي مشن كل ذلك ؟سؤال سوف نعطيك عنه الجواب

اجلس إلى أحد أهالي «لوقصر» وأعره أذنا واعية وسله أن يقص عليك نبأ «الذهبية الغريبة» فأنه لا شك محد٢ثك في بلاغة وإسهاب عن قصة طريفة ليس لي الآن في روايتها غير فضل التلخيص والتعليق

فهو يؤكد لك ما يعرفه من أمر هذه السفينة الذهبية التي تخرج من مياه هذه البحيرة المقدسة في بعض الليالي متأذلقة كالشمس وعليها ملك من الذهب الخالص يسير دقتها وإلى جانبه بحارة من الفضة،فإذا أرسل القمر ضوءه سارت السفينة تتهادى تاركة وراءها خطاً طويلاً من

الأحجار الكريمة.فإذا دار الحظ دورته أرسل إنسيا مجدوداً يعلم كيف يحفظ سر السفينة فيسير إلى جانبها صامتاً هادىء الفؤاد،فإذا اقتربت من الشاطىء صعد إليها في غفلة من راكبيها فأغترف منها ما يشاء عاثري الحظ من رأي السفينة فهاله الأمر فصاح فأختفت السفينة بملكها وبحارتها وانشقت مياه البحيرة فابتلعته

وأنت إذا جابهت محدثك بعدم التصديق أو إذا شعر منك بشىء من ذلك،فهو لا يدعك في شكك،وإنما يسترسل في حديثه ليعطيك مثالاً واضحاً أكيداً مستشهداً بشخصيات يرؤيد بها دعواه فهو يقول لك أن أحد عيان «لوقصر» الغابرين واسمه «دياب تمساح» كان يمر في أحد الأمسية إلى جانب البحيرة المقدسة،فإذا بموسيقى ساحرة تطرق أذنية آتية من بعيد وإذا بهذه الموسيقى تقوى وتقترب،وإذا بسفينة من الذهب تتألق في الظلام،وإذا جميع المظاهر تدل على أن هذه الليلة هي ليلة مهرجان عظيم

يقترب «دياب تمساح» من السفينة شيئاً فشيئاً،ثم ينبطح على الأرض ليرى فيرى عجباً يرى الملك الذهبي ثملا وقد أحاطب به بحارته ومن حوله نساء جميلات يرقصن رقصاً بديعاً فاتناً،ثم يبدأن الغناء،فإذا بدأن سمع صوتاً شجياً بلغ من حسنه ورقته أن أثار في نفس «دياب تمساح» كامن شجوه وإذا به يصيح : «الله الله» مستحسناً مشدوهاً

عهنا ينقطع الغناء ويأمر الملك أن أقطعوا قيود السفينة فتختفي الذهبية ويعود «دياب تمساح» إلى صوابه فيجد بقية الحبل الذي كان

يربط السفينة إلى الشاطىء فيأخذه هو والوتد والقدوم الذي استعمل لتثبيته وينطلق إلى منزله فإذا وصله نظر إلى ما احضره فإذا به من الذهب الخالص وإذا «بدياب تمساح» وقد أصبح بين عشية وضحاها من سراة البلد بل أكبر أثريائها

فأنت حين تسمع هذه الأقاصيص من أهالي «لوقصر» وهم يروونها مصدقين مؤمنين بصحة ما جاء فيها،لا شك ترجع بذاكرتك إلى الاله آمون وسفينته المقدسة التي كانت تخرج حاملة تمثال الاله فتسير ومن حولها الكهنة وفرعون والشعب مهللين مكبرين في عيدهم السنوي الذي كانت تسير فيه السفينة من معبد الكرنك إلى معبد «لوقصر» في احتفال مهيب تعود بعده إلى مقرها بالكرنك كما أسلفنا القول

***

وليست هذه القصة هي كل ما تسمعه من الأقاصيص.فهناك أقصوصة أخرى منتشرة في قفط أثبتها القريزي في تاريخه تتلخص في أن المعبد الموجود بهذه البلدة تقوم على حراستة فتاة سوداء تحمل على ذراعيها طفلاً رضيعاً أسود اللون مثلها،وأن هذه الفتاة ومعها طفلها ترى في كل ليلة ترتاد هذه المناطق

فإذا نحن طبقنا هذه القصة الغريبة على معلوماتنا التاريخية وجد أن فقط وهي كبتوس القديمة كانت مركزاً لعبادة الثالوث المقدس الذي كان يتكون من الاله مين والالاهه إيزيس والطفل حوريس.فهذه الفتاة وطفلها إن هي إلا إيزيس وحوريس على ذراعها كما نرى ذلك في آلاف

التماثيل التي عثرنا عليها والتي يوجد الكثير من أمثالها بالمتحف المصري.فذكرى الالاهه إيزيس وطفلها حوريس ظلت باقية آلاف السنين تتناقلها الأجيال وتتوارثها الأحفاد حتى وصلت إلينا شبحاً غامضاً نستطيع أن نتبين من خلاله برغم غموصه صورة الالاهة وابنها الرضيع وهي صورة معروفة لنا تمام المعرفة كما بينا

***

على أن هناك أقصوصة طريفة ثالثة يرويها لك أهالي دندرة عن معبد الجهة،فهم يذكرون لك وهم يتهامون أن ملكا من ملوك العهد القديم عاش ومات منذ آلاف السنين وكان غنياً جداً وقوياً جداً،وأنه أراد قبل موته أن يجد لأمواله حرزاً مكينا فابتنى في أرض هذا المعبد نفقاً كدس فيه أمواله وذخائره وأقام عليها بقرة تقوم بحراستها.بقرة شديدة البأس عظيمة القوة والمراس تلفظ عيناها شرراً يتطاير.هذه البقرة كانت تختفي أثناء النهار وتظهر في الليل حيث تظل متنقلة بين أرجاء المعبد وعيناها تراقب الكنز الذي اقيمت على حراسته ليل نهار.بذا بقى الكنز آلاف السنين محفوظاً مصاناً يهاب أهالى الجهة الأقتراب منه خوفاً ورعباً من بطش هذه البقرة العظيمة

غير أن مزارعا كان له حقل بجوار هذه المعبد قد زرعه عدساً.فلما اشتد العدس ونما كان يلاحظ هذا الرجل أن عدسه ينقص كل ليلة وكأن يداً كانت تمتد إليه في الظلام.فتربص الرجل في ليلة مستخفياً ليرى السارق،فإذا تلك البقرة العظيمة السوداء ترعى في حقله وتأكل ما طاب لها،فغضب الرجل وانصرف إلى منزله وطفق يفكر حتى هداه فكره إلى

أن يصمد في الليلة التالية بسيفه للبقرة فيقتلها حين تجترىء على اقتحام حقله

انصرف الرجل في الليلة التالية إلى الحقل لينفذ عزمه وبقي جائماً إلى ان اتت البقرة،وفي سرعة البرق طرقت رأسه فكرة جديدة —لماذا يدخل في معركة حامية الوطيس مع هذه البقرة الشديدة البأس.ولماذا لا ينتهز فرصة انشغالها بالأكل عن حراسة الكنز فيذهب إليه ليغترف منه ما يشاء له الحظ الحسن الذي هداه إلى هذه الفكرة السعيدة ؟

أطلق الرجل اذن لساقيه العنان فدخل المعبد واقترب من الكنز واغترف منه ما ملأ به زكيبته وبينا هو كذلك إذا ارتجت جدران المعبد بأصوات عدو قوية،وإذا بالكنز يرتج بابه وإذا بالبقرة تظهر غاضبة منكرة،وإذا بصاحبنا الفلاح يعدو وينطلق فيخرج من المكان وهو لا يزال حاملا زكيبته

وصل الفلاح إلى منزله يلهث ففتح بابه وأفرغ ما في زكيبته في إناء كبير كان يحتفظ فيه ببعض ماله وحفر للإناء في أرض الغرفة وأبقاه مدفوناً تحت الأرض بعيداً عن الأعين

ظل كنز الرجل مختفياً عن الأعين زمناً إلى أن أتى وقت الحاجة إذ طرق بابه محصل الأموال الأميرية يطلب دفع قسط الأرض السنوي فأمهله الرجل إلى اليوم التالي وذهب إلى منزله ليخرج كنزه فوجده سليماً معافي لم تمسسه يد منذ وضعه،فقلب الرجل يده في الإناء يستخرج ما يريد فإذا بالإناء يغوص في الأرض كلما امتدت يداه إليه وإذا هو يحاول

إدراكه فيعسر عليه الأمر ويختفي الإناء بما فيه.هنا يبكي الرجل ويندب حظه ليس لأنه فقد كنزه فحسب بل لأنه فقد أيضاً ما كان مع الكنز من نقود كان يدخرها من عرق جبينه!

هذه الأقصوصة تسمعها من المئات من أهالي دندره.وهناك من يؤكد أنه سمعها من ابن ذلك الرجل نفسه !

فهذه القصة على ما فيها من غرابة تفسيرها سهل وأمرها ليس من التعقيد بحيث تعتبر بعيدة عن حد الادراك، فنحن نعلم أن معبد دندرة كانت تعبد فيه الالاهة هاتور وهاتور تظهر في شكل بقرة وهناك آلاف الرسوم تمثل الالهة في هذا الشكل نجدها مرسومة على جدران هذا المعبد وغيره من المعابد.فهذه الأسطورة التي يدور فيها الحديث عن بقرة تتولى حراسة الكنز إن هي إلا هاتور إلاهة المعبد حارسته وربته الذي بني المعبد من أجلها واتخذ مقراً لعبادتها

فإن نحن عجبنا اليوم فليس نعجب من الأقاصيص نفسها وما فيها من مستغربات وإنما يحق لنا أن نعجب من هؤلاء القوم الذين أمكنهم أن يحتفظوا بأشباح الآلهة الفرعونية التي كانت تعبد في هذه الجهات ناسجين حولها القصص والأساطير التي ظل الأحفاد يتناقلونها عن الأجداد والخلف عن السلف.حتى وصلت إلى عصرنا الحديث صورة حية ناطقة بما كان يقوم المصريون الأقدمون بعبادته من آلهة وما مان يحتفل به الفراعنة من مهرجانات دينية.

العَادات الفرعونية الباقية في مصر إلى الآن

تنتشر في كل أمة من الأمم مجموعة من العادات والتقاليد يزاولها الأفراد في كل وقت كأمر طبيعي سهل ميسور لا يمكن أن يكون مجالاً للبحث والمناقشة،وشأننا في مصر شأن باقي الأمم،فنحن نجد أنفسنا محاطين بطائفة من العادات نراها ونلمسها في كل يوم منبثة بين طبقات مختلفة من الأمة هي السواد الأعظم من أهل هذه البلاد،بحيث أصبحت هذه العادات والمعتقدات دستوراً عند العامة في المدن،وجميع أهالي القرى من الفلاحين والمزارعين.

الشمس والشجر

من المعروف أن قدماء المصريين كانوا يعبدون الشمس واستمرت عبادتها زمنا طويلا.ولكن أثر عبادتها لا يزال ظاهراً بيننا إلى اليوم.ففي بعض قرى الوجه البحري لا يزال يقسم الأهالي بالشمس فيقولون : «وحياة البهية اللى تطلع من جبلها»

ومظهر آخر من هذه المظاهر يتضح في عادة رمي السن إلى الشمس فيقول الصبي :«يا شمس يا شموسه –خدي سن الحمار وهاتي سن الغزال ».أما البنت فتقول :«يا شمس يا شموسه –دي سن الجاموسة وهاتي سن العروسة..»

وقد وحدت الشمس عند قدماء المصريين مع الجعل،فسميت

(خبرع)،وإلى الآن نجد أهالي بعض جهات الصعيد إذا مرض أحدهم بالحمى المسببة عن خبطة الشمس،خاط إلى طرف ثوبه جعلا ليأخذ الحمى.

وكما كان المصريون يعبدون الشمس،فإنهم كانوا يعبدون أنواعاً مختلفة من الأشجار كشجرة الجميز والسنط والنخيل.وكانوا يعتقدون أن الإلهة هاتور أو توت قد حلت فيها.وفي كثير من الرسوم نرى الميت وقد وقف أمام شجرة برزت منها الإلهة وهي تقدم له مائدة،عليها قرابين مختلفة.فأثر هذه العبادة لا يزال موجودا في مصر إلى الآن يزاوله كثير من المسلمين والأقباط على السواء.فشجرة المطرية التي تعرف بشجرة العذراء هي بلا شك خلف لشجرة هليوبوليس المقدسة التي كانت تحل فيها الإلهة ويعبدها المصريون القدماء. وفي إحدى قرى الفيوم شيخ اسمه الشيخ صبر دفن في مكان لا تقوم فيه سوى شجرة كبيرة يحج إليها كل زي حاجة يريد قضاءها من أهالي البلاد المجاورة،ويأتي لها المرضى من كل فج عميق آملين الشفاء من أمراضهم، فيدق كل مريض في جذعها مسماراً يلف عليه خصلة من شعره،فإذا فعل هذا اعتقد المريض أنه سيشفى من مرضه لا محالة.وكذا العاقر إذا فعلت هذا اعتقدت أنها «حاتحبل على طول وتجيب ولد»

فهذه الأشجار،وخاصة الجميز –لا تخلو منها جبانة حديثة في مصر أو ضريح من أضرحة الأولياء والمشايخ.وتعتبر الشجرة وأغصانها مقدسة،أما أوراقها وفاكتها فلها قيمة محترمة.ولطالما سأل عامتنا من أولاد البلد من يعرفونهم من الأجانب قبل أن يعتزموا السفر ومغادة البلاد

إذا كانوا قد أكلو جميزا –فإذا ردوا بالإيجاب استبشروا وتفاءلوا خيرا وهم يقولون : «كل من يأكل الجميز يرجع مصر ثاني» وثم مظهر آخر من مظاهر هذه العبادة هو وجود أسماء مدن مصرية حديثة تدل على ذلك.مثلا– الجميز،السنطة،النخيلة... الخ

القط والثعبان والتمساح والقرينة

وللقط الآن عند العوام منزلة خاصة ؛فهم يرعون جانبها ويحسنون معاملتها ويتجنبون ضربها.وهم يعتقدون أن الأرواح والجان يتلبسون أجسام هذه القطط ويظهرون بأشكالها.وتفسير هذه الأفكار والمعتقدات الغامصة هو أن القطط كانت إحدي معبودات المصريين القدماء، يعبدونها بأسم الإلهة «باستيت». ويعتقد العوام من الناس أن لكل منزل ثعباناً يحرسه – فهذا الاعتقاد يرجع إلى أن المصريين القدماء كانوا يعبدون أحياناً ثعباناً كبيراً يظنون فيه الخلود ويعتقدون أنه يسكن حقلا أو غابة أو كهفا أو جبلا ويقوم على حمايته.ولدينا بالمتحف المصري تمثال ثعبان وجد أتريب (بنها الحالية) ووضع هناك لحمايته. أما ما نجده أحيانا معلقاً على أبواب المنازل من تماسيح محنطة فإن هي إلا بقية من بقايا عبادة الحيوانات في عصر الفراعنة،إذ كان التمساح إلها عبدوه وسموه «سبك». ويعتقد العوام الآن أن لكل شخص أختا تحت الأرض أو قرينة تولد معه.فهذا الاعتقاد ورثناه عن الفراعنة الذين كانوا يعتقدون أن كل شخص له روح أو قرين أطلقوا عيلها «كا» وكان هذا الـ «كا» يعيش معه،فإذا مات تبعه إلى المقبرة مع جسد الميت،ويظل حالا فيه ولا يفنى بفناء الجسم.

العادات الفرعونية الباقية

يحرص الفلاحون في القرى على الإكثار من الأدولاد والنسل حتى تكون لهم عائلة كبيرة وذرية،وهم يبكرون في الزواج بدرجة يستغربها الكثيرون –فهذه عادة ورثناها أيضاً عن المصريين القدماء.قال الحكيم المصري «آني» في وصية إلى ابنه : «اتخذ لنفسك زوجة وأنت صغير حتى تعطيك ابناً تقوم على تربيته وأنت في شبابك،وتعيش حتى تراه وقد اشتد وأصبح رجلاً.إن السعيد من كثرت ناسه وعياله فالكل يوقرونه من أجل أبنائه » أفليست هذه العبارات بألفاظها ومعانيها هي التي نسمعها كل يوم من أفواه المسنين من الفلاحين يوصون بها أولادهم ليل نهار؟

الميل إلى وظائف الحكومة

ونحن نعيب على مواطنينا تمسكهم بوظائف الحكومة وتعلقهم بأذيالها ونحتقر قولهم : «من فاته الميرى أتمرغ في ترابه»،ولكننا ننسى أو نتناسى أننا ورثنا هذه العقلية عن أجدادنا فقد ورد في النصوص الفرعونية صورة خطاب كتبه أب لأبنه يقول فيه : «بلغني أنك أهملت دراستك وسرت وراء ملاهيك، فهل تريد أن تكون فلاحاً تشق وتكدح ؟لا تكن فلاحا، ولا تكن جنديا ولا تكن كاهنا بل كن موظفا يحترمك الجميع ويمتليء منزلك خدما وحشما وتتربع في مجلس الثلاثين إلى جانب رجال البلاط.» ولطالما هزأنا بآلاف الموظفين وما يبدونه من ضروب المداهنة والمصانعة للرؤساء ابتغاء مرضاتهم،ولكننا نسينا أن هذا الداء مولود فينا توارثناه عن الآباء والأجداد.ألم يقل الحكيم «بتاح

حتب» الذي عاش منذ خمسة آلاف سنة : «انحَن أمام من هو فوقك، أمام رئيسك في شئون الإدارة الملكية حتى يستمر بيتك مفتوحاً ويستمر رزقك ومرتبك جارياً ولا تعصه فإن عصيان من بيده السلطة شر مستطير.»

كراهية الموظفين للاغتراب

ننادي الآن بالويل والثبور وعضائم الأمور إذا انتقل الموظف إلى جهة بعيدة غير مرغوب فيها،ولكن يجب ألا نلام على ذلك،فإن الاغتراب قد ولّد فينا كرهه حين ولدنا ووثناه ضمن التركة التي خلفها لنا الأجداد.ألم يَشْكُ هذا الموظف المسكين الذي نقل من بلده منفيس منذ أربعة آلاف سنة،فكتب يقول : «إني أجلس هنا بالجسم على حين تطير روحي إلى منفيس حتى تطمئن على الأحوال هناك وتستقر.إني أجلس هنا ولست بمستطيع أن أقوم بعمل،أي إلهي بتاح أحضر إليّ وخذني إلى منفيس ودعني أرها ولو من بعيد !»

التمسك بالمظاهر

ثم إن الكثير مما نشكوه من عيوب يجري في دمائنا بحكم الوراثة من آبائنا الأقدمين فتمسكنا بالمظاهر الكاذبة وما تحتمه من تبذير شديد عيب فينا قديم.ألا تخبرنا النصوص بأن الملك رمسيس الثالث الذي كان يعطي ١٨٥,٠٠٠ كيس من القمح سنوياً للمعابد،هو بعينه الملك الذي لا يستطيع أن يرسل خمسين كيساً من القمح شهرياً لعماله في الجبانة،وقد كانوا يتصورون جوعاً

كرم المصريين

أما كرم المصريين وإسرافهم في الولائم والأفراح فهما موروثان أيضاً،فلطالما شهدت قاعات منازل الأثرياء في عصور الفراعنة ولائم رائعة كان يدعي إليها عشرات الصحاب والخلان وتتخللها الموسيقى والرقص والغناء.وكان المصريون لا يدخرون وسعاً،كما نفعل اليوم،في تقديم كميات وافرة من اللحوم وألوان مختلفة من ألذ أنواع الطعام ؛إذ كانت تقاس عظمة الداعي بكمية ما يقدمه من طعام –فإذا حان وقت الطعام غسل كل مدعو يده قبل الأكل،إذ يتقدم الضيف إلى رجل يصب على يده الماء من إبريق في طست يشبه كلاهما الطست والإبريق اللذين نستعملهما اليوم تماما،فإذا فرغوا من أكلهم غسلوا أيديهم أيضاً كما نفعل اليوم.

احتقار الفلاح وتعذيبه

أما احتقارنا للفلاح فهو قديم.وقد وردت في رسوم المقابر الفرعونية مئات الرسوم التي تهزأ به.

وكان إذا تأخر في دفع ما على أرضه من ضرائب أتته جباة الأموال وطرحوه أرضاً وأوسعوه ضربا بعصيهم حتى يدفع! أفلم يكن هذا هو النظام المتبع في جباية الأموال إلى عهد قريب؟

عادات الغناء والموسيقى

وهناك مئات من العادات الصغيرة نراها كل يوم دون أن نلقى إليها

بالاً.فالمغني البلدي لدينا والمقرىء وهو يتلو القرآن كلاهما يضع إحدى يديه على خده وهو ينشد،فهذه العادات وردت لها عشرات الرسوم في الآثار المصرية القديمة،بل إن نفس المزمار (الزمارة) التي يستعملها المغنون في القرى هي نفسها التي كانت تستعمل في عصور الفراعنة. ثم إن التصفيق بالأيدي لمصاحبة الغناء أخذناه عن الصريين القدماء.وكذا «الطرقعة» بأطراف الأصابع عند الرقص ورثناه عنهم أيضاً.و كان يفضل المصريون القدماء من المغنين والعازفين من كان أعمى لا يبصر،فإننا لا نزال إلى الآن نفضل من المقرئين من كان كفيف البصر.أما عادة وضع القلم على الأذن،وهي التي يزاولها كل يوم مئات من كتبة المحال التجارية والمحصلين وجباة الأموال (الصرافين) في القرى والأقاليم فهي عادة أنحدرت إلينا من كتبة قدماء المصريين الذين كانوا يضعون الأقلام على آذانهم.

بل إن عادة إظهار الإعجاب بحسن صوت المغني أو المنشد أو إظهار الفرح العظيم بأن يطوح الشخص ملابسه أو طربوشه هي أيضاً عادة فرعونية.فقد ورد في نصوص الأهرام وصف لوصول الملك بعد موته إلى العالم الآخر حيث «وجد الآلهة في انتظاره متدثرين بملابسهم ومنتعلين نعالاً بيضاء،فما كادوا يرونه حتى ألقوا بملابسهم ونعالهم من الفرح وصاحوا قائلين : «إن قلوبنا لم يدخلها الحبور والفرح إلا عند مقدمك».

السحر والسحرة

أما ما ندعوه الآن بالسحر فقد ورثناه بأكمله عن المصريين القدماء.فقد اشتهرت مصر منذ قديم الزمان بالسحر،وإلى الآن لا تعدم قرية من قرانا ساحراً تغدق عليه خيراتها وتضع فيه ثقتها ويستمتع فيها بنفس النفوذ والثقة اللذين كان ينعم بها سحرة العصور القديمة.

كان المصري القديم يلجأ إلى الساحر إذا أراد التخلص من عدوه.وتخبرنا النصوص أن الساحر كان يعذب هذا الشخص بما يطلقه عليه من أحلام مزعجة وأشباح مرعبة وأصوات مستغربة،بل إن الساحر كان يسلط عليه الأمراض فتنهك قواه وتهد بدنه.وكان الساحر قادراً على أن يجعل النساء يتركن أزواجهن ويتعلقن بأذيال من يريده الساحر من رجال وإن كانوا موضع كرههن من قبل.وكان الساحر يطلب في مثل هذه الأحوال لكي ينجح عمله أن يؤتي له بقليل من دم الشخص المطلوب أو قلامة من أظافره أو خصلة من شعره أو قطعة قماش من ثياب يكون قد لبسها –فإذا حصل الساحر على ما طلب صنع تمثالا من الشمع بشكل الشخص المطلوب (العمل له)،ووضع في التمثال أو استعمل في صنعه الأشياء التي أخذها.فإذا تم له ذلك ألبس التمثال ملابس كالتي يريدها الشخص نفسه حتى يشبهه تمام المشابهة،ثم يجري عليه طائفة من الأعمال السحرية،فكان إذا دق مسماراً في التمثال أصيب الشخص بمرض،وإذا قَرّب التمثال من النار أصابت الشخص حمى خبيثة،وإذا طعن التمثال بسكين قُتل الشخص أو جرح.ويظل الساحر يزاول أعماله

حتى يقضى على الشخص الذي يريده.وقد ورد في النصوص أن هذا النوع من السحر قد استعمل ضد الملك رمسيس الثالث ولكنه اكتشف الأمر فقبض على هؤلاء السحرة وصادر ما وجده لديهم من تماثيل الشمع التي صنعت بشكله( ) أفليس هذا النوع من السحر وعمل التماثيل من الشمع أو الطين ووخزها بالإبر والدبابيس هو الذي يستعمله الدجالون في القرى والأقاليم الآن ؟

وكل ما لدينا من غرام بالتمائم والتعاويذ والأحجبة :كحجاب الحب والكره والحفظ،وآلاف التمائم التي تعلق في رقاب الأطفال حتى تطول أعمارهم،كل هذه إن هي إلا عادات ورثناها عن أجدادنا القدماء الذين كانوا لا يسيرون خطوة إلا والتمائم ترافقهم وتحميهم.وزيارة واحدة للمتحف المصري تطلعكم على آلاف التمائم التي استعملها المصريون القدماء.

الاعتقاد في تأثير العين

ويقرب من هذا الاعتقاد العوام منا اعتقاداً جازماً بالعين وقوة أثرها.فأنت إذا جلست إلى رجل من العوام حدثك كيف أن هناك فئة من الناس لا تكاد ترى شيئاً تعجب به حتى يحصل له حادث ما، ومن هنا نشأت فكرة تعليق الصحون على مداخل المنازل أو قرون الأغنام أو عروسة القمح على الأبواب،وكذا طائفة من التمائم نراها معلقة على العربات وسيارات الأغنياء منا والمثقفين بشكل خرز أو قلائد توضع دفعا للعين – فهذه الخرافة ورثناها أيضا عن مصر القديمة،فقد وجد في مكتبة

معبد الإله حوروس في أدفو كتاب مملوء بالرقى والتعاويذ لطرد العين الشريرة.كما أن هناك أنشودة معروفة للإله تحوت يرجع تاريخها إلى الدولة الحديثة، وقد ورد فيها ما يأتي : «أيها الإله تحوت! إذا كنت حميني لم تبق بي حاجة إلى الخوف من العين ».

الأوقات المنحوسة

يعتقد العوام عندنا أن هناك ساعات من النهار يل اياماً مخصوصة لا يحسن بالمرء أن يأتي فيها عملاً لأنها منحوسة –فهذا الاعتقاد في الأيام سعدها ونحسها قديم أيضاً ؛إذ كان المصريون القدماء يعتقدون أن الأيام تكون سعيدة أو منحوسة طبقاً لما وقع فيها من حوادث سعيدة أو كريهة في أساطيرهم الدينية، فاليوم الأول من أمشير الذي رفعت فيه السماء،وكذا اليوم السابع والعشرون من هاتور الذي عقد فيه صلح بين الإلهين حويس وسيت وتراضيا فيه على اقتسام العالم،وكانا يومين كلهما سعد وبركة.أما اليوم الرابع عشر من طوبة الذي بكت فيه إيزيس ونفتيس على أوزريس فقد كان يوماً منحوساً.وكان هذا الاعتقاد من القوة في العصر الفرعوني بحيث إن كثيراً من الأعمال كالبدء في سفر بعيد أو عقد صفقة تجارية أو ما إليهما كان يؤجل من أجل هذه الأسباب.وما زلنا الآن بعد مضي خمسة آلاف سنة نؤجل أشغالا لهذا السبب عينه.

تعليق البصل

وقد اعتدنا في ليلة شم النسيم أن نعلق البصل فوق الأماكن التي ننام فيها أو نضعه تحت الوسادة،وفي الصباح نكسر البصل ونشمه،وفي

بعض القرى يعلقون هذا البصل على باب المنزل.فهذه العادة مصرية قديمة ؛ إذ كان الناس في عيد الإله «سكر» إله الموتى في مدينة منفيس يدورونحول جدران هذه المدينة وقد علقوا البصل حول رقابهم،كما كانوا يعلقون البصل حول أعناقهم في الليلة التي تسبق هذا الاحتفال.

الفهرس

مقدمة ٥
الأثريون الأنجليز في مصر ١٣
آثارُنا التي لم تكِشفْ بَعْد ٢٥
أبو الهول.. ذلك اللغز الخالد ٣٦
التبرج عند قدماء المصريين ٤٠
الحرب عند قدماء المصريين ٤٩
المرأة في الفن المصري القديم ٥٦
الزواج عند قدماء المصريين ٦٢
من قصص البردي ٦٩
الخائنة في القصص المصري القديم ٨٢
أشباح الفراعنة ٨٩
العَادات الفرعونية الباقية في مصر إلى الآن ٩٦